





مجموعة قصصية

د. عودة الله منيع القيسي

العبيكان
Obeikan

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م

بسم اللّٰه الرَّحمنِ الرَّحِيم

المقدمة

عُرفت القصة.. منذ أن وجد الإنسان على الأرض.. كانت في البدء خبراً عن رحلة صيد أو حادثة عراك بين الإنسان والإنسان، أو بين الإنسان وأحد الوحوش، وكانت في البدء تروى بالحركات والإشارات ثم بالرسوم ثم.. عندما عرف الإنسان اللغة... أصبحت تروى باللغة..

وعرفت القصة – الحكاية عند اليونان وعند العرب وكتاب «البخلاء» للجاحظ معرض لهذه الحكايات القصصية. ثم.. عرفت المقامات، وهي نوع من القص أو من الحكاية القصصية.

ولكن القصة الفنيّة – بمفهومها الحديث – لم تعرف إلا في القرن التاسع عشر عند الغرب، ثم عرفت في مصر وبعض الأقطار العربية منذ العقد الأول من القرن العشرين.. لأن القصة الفنيّة، في الغرب وفي الوطن العربي، كانت استجابة لظروف اجتماعية، منها نشوء الطبقة المتوسطة المثقّفة، ونشوء الصحافة.

وقد كانت القصة حتى منتصف القرن العشرين. تقوم على الحكاية إلى جانب. التشكيل القصصي: (الأسلوب القصصي)، وتهتم بالعقدة والحل والحديث إلى جانب التنوير في نهايتها. غير أنها في العقود الأخيرة لم تعد تعتمد على الحكاية أو لحظة

التنوير.. (فقد ترد فيها هذه العناصر وقد لا ترد..) يكفي أن تقوم القصة على حدث رمزي أو مجموعة أحداث متفرعة.. وتعرض تقنية قصصيّة أي تكنيك قصصي.. لقد تحررت من كثير من العناصر التي كانت تعتبر لازمة لها في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، لأن القصّة في جوهرها، هي تكنيك قصصي ينطوي على موضوع معين، وتهدف إِلى إِحساس يصل إِليه القارئ، بعد قراءتها، قد يترجمه إِلى فكرة أو أسلوب.

والحق أن القواعد التي يسجلها النقاد لفن من الفنون، سواء أكان القصة القصيرة أو غيرها من الفنون، ليست أكثر من استخلاص لصفات موجودة في الأعمال الفنية نفسها. ولهذا فهي تمثّل هذا اللون الفني أو ذاك خلال فترة زمنية معيّنة.. والدليل على ذلك أن الفن نفسه قد يخرج على هذه القواعد في فترة زمنية لاحقة.. إِنّ أرسطو كان يعتبر الوحدات الثلاث، وحدة الزمان ووحدة المكان، ووحدة الحدث، شروطاً أساسية في المسرحية الجيّدة.. ولكن المسرح الحديث خرج – كما هو معروف – على هذه الوحدات الثلاث. ذلك لأن المقياس الجوهري في الفن هو الشرط الأساسي لكل فنّ على حدة كأن يكون تكنيك الفن في القصة وأن يكون الكثافة التعبيرية والتصويرية في الشعر، والحوار في المسرح.. الخ.

إِذ بدون هذا الشرط يفقد الفنّ تميّزه وصفته الأساسية.

وإلى جانب هذا الشرط.. لا بدّ، لكل فن، ولكي يكون فناً جميلاً مؤثراً من أن يتصف بصفات «العَيْنات الثلاث» .. الإمتاع والإقتناع والابتداع[١]. فأي فن – قولي أو غير قولي – لا يمتع ولا يقنع ولا يبتدع (أي لا يأتي بشيء ما جديد) هو فن ساقط أو هو (دعيّ) ينسب إلى الفن باطلاً، وكل فن يتصف بهذه الصفات الثلاث لابد أنه ينطلق من فكرة وينطوي على مغزى.

ومن هنا: نرفض كثيراً من الشعر الحديث.. لا لأنه خرج على البحور الشعريّة المتوازنة، وإنما لأنه خرج على «عمود» الشعر، أي: لم يعد يقدم ابتداعاً أو إقناعاً أو إمتاعاً، حتى وإن كان يقوم على فكرة وينطوي على مغزى.

وفي هذه المجموعة القصصية (يوم الكرة الأرضية) التي أقدم لها.. انطلقت فيها كلها من «التصور الاسلامي» للحياة والناس والأشياء والكون.. شأني شأن قصصيين آخرين. ولكن الجديد الذي أعتبر أنني ربّما انفردت به هوإدخال الثقافة الإسلامية إلى القصة، فقد ضمت القصص شيئاً من القرآن أو الحديث أو الشعر أو الحكم، كلٌّ جاء في مكانه المناسب ذلك لأني أعتقد أن التصور الإسلامي القويم لا ينفصل عن الثقافة الإسلامية، وأن الشخصيات القصصية الإسلامية لا يجوز أن تمضي رحلتها في القصّة دون أن

---

١ – يجدر أن أذكر أنني أول من استخدم هذا الاصطلاح في مقالة لي عنوانها: (هناك طريقة أخرى) – جريدة اللواء ١٥/٨/١٩٩٠.

يكون لها أو لبعضها شيء من الخصوصية الإسلامية وإلاّ.. فهي هياكل شخصيات إسلامية.. أو هي أشباح وليست شخصيات حيّة قادرة على الإقناع.

وكانت بعض هذه الشخصيات من الرجال وبعضها من النساء.. فهل يجوز أن تَخْطِرَ المرأة في قصة تبنى على أساس التصور الإسلامي؟ نقول: نعم.

لأن الإسلام – إلى ما فيه من غيب – ذو نظرة واقعية للحياة والحياة.. لا تقوم على الرجال وحدهم بل تقوم على الرجال والنساء، والحق – تعالى – يقول: ﴿ومَنْ أَياتهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجاً﴾ /سورة الروم ٢١/، ويقول: ﴿لِلّرِجَالِ نَصيبٌ مِمَّا اكتَسَبُوا وَلِلِنسَاءِ نَصِيبُ مِمَّا اكتَسبنَ﴾ /سورة النساء/. ثم هل يجوز أن يصف القاص الإسلامي المرأة ويتغزل بجمالها الجسدي والمعنوي؟.

نقول: نعم ولكن بحدود العفة أي يكون غزلاً لا فحش فيه، ودليلنا على ذلك أن الرسول [استمع إلى حسان بن ثابت وكان يبتدي بعض قصائدة الإسلامية بالغزل، ولم ينهه الرسول الكريم عن ذلك، ومن المعروف أن الرسول الكريم لا يجامل في الحرام. بل إن الرسول [قد أهدر دم كعب بن زهير، ثم عدل عن ذلك وعفا عه بعد أن سمع قصيدته التي ابتدأت بمطلع غزلي طويل وصف فيه جسد المرأة وصفاً دقيقاً، ولكنه لم يلجأ إلى المجون والفحش

كما لجأ إليه امرؤ القيس مثلاً – في الجاهلية – في بعض قصائدة، وعمر بن أبي ربيعة – في الإسلام في بعض قصائده كذلك.

والثاني: أن الفن خلاف الواقع، لأن الفن محاكاة للواقع أي سير على مبادئ الواقع مع تشكيل الأشياء تشكيلاً جديداً يخالف الواقع.. كثيراً أو قليلاً. ولهذا.. فهو محاكاة للواقع وليس تصويراً للواقع كما هو. لأن الفن – بعبارة أخرى – اكمال لنقص الواقع، أو بناء لواقع فني يخالف الواقع المادي.

أمّا أن الأدب محاكاة.. فهذا يعني أن الشاعر (والأديب عامة) عندما يصف امرأة لا يصفها حقًّا وإنما يسبغ عليها المثال الذي في نفسه ثم يصفه أو يصف صفاتها الجميلة ثم يسقط عليها صفات أخرى لا تكون فيها أو تكون فيها بحدّها الأدنى. ومن هنا: فهو لا يصف امرأة لا يعدوها وإنما يصف مثال المرأة من خلال امرأة.. وعلى هذا.. «فسعاد» التي وصفها كعب ليست أنثى من لحم ودم، كما وصفها. وانما وصف مثال المرأة من خلال سعاد، معبّراً عن صفاتها ومسقطاً عليها صفات أخرى قد لا تملك منها إلاّ الحدّ الأدنى.

فسعاد مثال المرأة وليست امرأة بعينها. وإلى امرأة بعينها. وإلى مثل هذا أشار سومرست موم بقوله:

«إن الكاتب لا ينسخ نماذجه نسخاً من الحياة، ولكنه يقبس منه ما هو بحاجة إليه، بضع ملامح استرعت انتباهه هنا، أو لفتة

ذهنية أثارت خياله هناك. ومن ثمَّ يأخذ في تشكيل شخصيته، لا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل ما يعنيه حقاً.. هو أن يخلق وحدة منسجمة، محتملة الوجود، تتفق وأغراضه الخاصة..»[١].

«وهذه حقيقة لا مراء فيها، إذْ إن الشخصية في القصّة تختلف عنها في الحياة، فالفن والحياة شيئان متباينان، والوجود في أحدهما يختلف عن الوجود في الآخر، فالحياة تفرض علينا وجوداً مستمراً، بينما الشخصية في القصة لا تظهر إلاّ في الأوقات التي ينتظر منها أن تقوم فيها بعمل ما، بينما نحن في حياتنا الواقعية نعيش أياماً بل سنين، دون أن نعمل عملاً هاماً يلفت النظر».

لهذين الأمرين.. لم يعترض الرسول الكريم ذو القلب الكبير والمشاعر الإنسانية ذات الكمال.. على غزل كعب بن زهير. ولهذين الأمرين.. قَبِلَ الناس في جميع العصور الإسلامية الغزل العفيف الذي لا يسقط في وصف العلاقات الجنسية المباشرة.

– يستطيغ الكاتب أن يصف من ليس على شاكلته؟

ان الكاتب العبقري.. يكون غني النفس، بحيث يستطيع وصف نفسيات وسلوك الشخصيات التي خَبَرَها والتي لم يَخْبرها، فشكسبير – مثلاً – وصف وأجرى أحداثاً على أيدي المجرمين وهو لم يكن مجرماً، بل وصف وأجرى أحداثاً على أيدي النساء، وهو

---

(١) نقلاً عن (فن القصة) ص ٩٣

The Dumming up.p.57.

معروف أنه رجل، لأن النفس الغنية تستطيع أن تتمثل الطبائع البشرية المختلفة، وأنواع السلوك البشري، سواء أصدر عن كبير أم صغير، عن غني أم فقير، وعمن يملك نفساً طيبة أم من يمتلك نفساً شريرة.. عن رجل أم امرأة.. الخ.

– أيكون إنتاج أدب رمزي أو واقعي أو رومانسي، في مجال القصة أو غيرها من فنون الأدب.. راجعاً إلى نية الأديب وقصده أم راجعاً إلى الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؟ أعتقد أن إبداع قصة رمزية أو واقعية أو رومانسية.. لا يرجع إلى تشكيل خارجي من الكاتب، وإنما يرجع إلى الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعيش في إطارها الكاتب، وتفاعل معها،.. فهناك موضوعات لا يحسن للأديب أن يعبر عنها إلا تعبيراً رومانسياً، وموضوعات لا يحسن أن يعبر عنها إلا تعبيراً واقعاً، وموضوعات لا يحسن التعبير عنها إلا تعبيراً رمزياً.. لأن التصريح بحقائقها لا تسمح به الأجواء المحيطة بالكاتب.. أما إذا تكلّف الكاتب الرومانسية أو الواقعية أو الرمزية.. فإن فنّه يكون مهلهلاً ضعيفاً، لا يمكن أن يُحْدِث الأثر المطلوب من شروط العينات الثلاث: الإمتاع والإقناع والابتداع، لأن الفن الأصيل هو فن – بالضرورة – وليس فناً – بالاختيار – على أن ذلك.. لا يناقض الصقل والتحسين والصنعة المحدودة.

ومثل نوع المذهب الأدبي الذي يكتب في إطاره الكاتب.. التقنية

« التكتيك » التي يأخذ بها؛ فكل قصّة تفرض « تكنيكها » الذي يأتي من التجاوب بين المضمون – (وليس الموضوع) وبين نفسيّة الكاتب .

وسؤال آخر عن المرأة نعرضه : أيجوز أن يتحدث الأديب المسلم عن المرأة – العاهر – ويجري على يديها أنواعاً من السلوك والأحداث ؟

نقول : نعم . يجوز . ولكن على أن يؤدي مجمل الوصف والأحداث إلى استقباح القارئ لما تفعل، لا عن طريق الوعظ المباشر، وإنما عن طريق ما تدل عليه الأحداث . لأن الخطورة ليست في الكتابة عن المرأة – العاهر – من حيث المبدأ، وإنما في نوع الأوصاف التي توصف بها، والأحداث التي تقوم بها . . مثلاً، نجيب محفوظ . . عندما كتب عن العاهر بشكل عام . . أورد من الأوصاف والأحداث . . ما جعلها محببة إلى نفس القارئ، بحيث يستحلي أن تكون له علاقة مع عاهر (مومس)، عندما لا يهمه موضوع الحلال والحرام . . . وأكبر مثل على ذلك شخصية « نور » في رواية « اللص والكلاب »، فقد كان فيها من الحب لصديقها « سعيد مهران »، ومن الحدب عليه . . أكثر مما يكون عند الزوجة على زوجها .

أما دليلنا على أنه يجوز ذلك . فقصة امرأة العزيز (في قصة سورة يوسف) مع يوسف عليه السلام – لقد كانت عاهراً في سلوكها مع يوسف الذي كان في عمر أبنائها . . ومع ذلك لم يستنكف الحق على أن ينزل قصتها على محمد باعتبارها جزءاً من القرآن . ولكن القرآن أوردها بصورة نستنتج منها ما فعلت .

الخلاصة:

أن كل شيء عن المرأة – عفيفة أو عاهراً – يمكن أن يذكر وأن يفصل في أي عمل أدبي ينتمي إلى الاتجاه الإسلامي. المهم أن يورد الأديب ما يورد من خلال تصور إسلامي، على ألا يكون وعظاً مباشراً، وإنما من خلال الأسلوب الأدبي المتعارف عليه في نوع الفن الذي يعالج من خلاله الموضوع المطروح.

***

وأخيراً: فما أعتقد أنه يطلب من كل قصّة أن تكون جديدة في موضوعها... فذلك مستحيل، وإنما يطلب من كل قصة.. أن تكون جديدة في مضمونها – وفي «تقنيتها» بحيث تكون ذات شخصية متميزة لا تندغم في قصة أخرى للكاتب نفسه أو لكاتب آخر فتكون كأنها ظل لها. ولا يقصد من الجدّة في «التقنية» أن يأتي كل مرّة «بتقنية» غير معروفة.. فذلك مستحيل كذلك.. وإنما المقصود أن تكون جزئيات «التقنية» لها تركيبتها المستقلة التي لا تندغم في تركيبة أخرى. ونمثل على ذلك بأن الناس جميعاً لهم نفس الهيكل العام، ومع ذلك... فليس من شخص يعدّ نسخة أخرى لشخص آخر، بل كل له تفرده – في إطار الهيكل العام – على أن الشخصيات العظيمة يكون لكل منهم . في إطار الهيكل العام كذلك – تفرد واضح،

وسمات بارزة تميّزه عن غيره، منها ماهو جسمي ومنها ما هو نفسي أو معنوي.

وختاماً:

فإن الفن الأصيل، أدباً أو غير أدب، قصة أو غير قصة، واقعياً كان أو رمزياً أو أي لون آخر.. لابدّ أن تجتمع فيه شروط العينات الثلاث: الإمتاع والإقناع والابتداع... وإلاّ كان متطفلاً على الفن.

والله الموفق

د. عودة الله منيع القيسي

يوم الكرة الأرضي

استيقظ محمود باكراً كعادته.. تلك عادة اكتسبها منذ عشر سنوات خلت، عندما وقع في حب زميلته في الجامعة سعاد. كان يستيقظ باكراً ليستمتع باستعادة أحداثه معها في اليوم السابق قبل أن ينهض من فراشه ليتوضأ ويصلي الصبح قبل أن يذر قرن الشمس.

ومع أن حب سعاد أصبح ذكريات لأنها، بعد أن أنهت الجامعة، آثرت عليه رجلاً في الخامة والثلاثين يمتلك قصراً وسيارة فخمة ومصنعاً للزجاج... مع ذلك.. لازمته عادة الاستيقاظ المبكر، واستعاض عن استرجاع ذكرياته مع سعاد بالاستماع إلى المذياع يقلّبه على المحطات المختلفة.

وفي يوم الكرة الأرضية في الثاني والعشرين من نيسان.. استيقظ كعادته، ومدّ يده إلى مفتاح المذياح وهو ممدد في الفراش فأداره، فانبعث من إذاعة عمّان صوت أنثوي خفيض ناعم يلفه الهدوء.. لم يعتد أن يسمع هذا الصوت الخفيض، فَصَوْتُ هذه المغنية – التي استمع لها طويلاً – صوت فيه ارتفاع في الطبقة،

فما له هذا اليوم كأنه مرّ على طريق مصفاة للصوت مبللّة بالماء!
بعد أن استمع إلى الأغنية نقل مؤشر المذياع إلى محطة لندن فانبعث صوت رجل، ولكنه كان خفيضاً كذلك.. بدا الأمر غريباً، فنقل المؤشر على كل المحطات الشغّالة، وكلما وقف المؤشر على محطّة.. انبعث إلى أذنيه صوت أنثوي ناعم خفيض أو صوت ذكري هادئ خفيض.. ما الذي حدث؟ أتفاهم رؤساء الدول في العالم عن طريق الأقمار الصناعية على أن يصدروا تعليمات إلى محطات البث لكي يخفض المغنون والمغنيات والمتحدّثون والمتحدثات من طبقة أصواتهم، مساهمة في خدمة البيئة وتخفيف تلوثها من جراء نوع من الملوّثات هو الضجيج؟ ربّما.. وربما يكون هذا ليوم واحدٍ هو هذه المناسبة، وربما يكون قراراً مستمراً إلى الأبد، لكي يخففوا من الضجيج الذي يرهق النفوس والأعصاب ويزيد في الأضرار البيئية الواقعة على الإنسان!
ولكن.. أين أنا من هذا؟ لماذا لم أسمع بهذا الاتفاق؟ قد يكون عقد بين رؤساءِ دول العالم بعد الساعة الحادية عشرة، موعد ذهابه إلى فراشه. ولكن هذا تفسير يقوم على الظن قررأن يبكر في زيارة جاره التاجر ليشتري منه الجريدة، فيعرف الخبر اليقين من التاجر أو من الجريدة.. ازدادت دهشته عندما سلّم على جاره التاجر فردّ عليه بصوت هادئ خفيض كأصوات المتحدثين والمتحدثات في الإذاعات، وأراد أن يتأكد من أن التاجر التزم الهدوء وخفض

الصوت، فسأله، بعد أن نظر في الصفحة الأولى من الجريدة ولم يجد خبراً عن هذا الانقلاب الصوتي:

– ماذا حدث؟ كل المغنيين والمغنيات والمتحدثين في الإذاعات والمتحدّثات قد خفضوا من طبقة أصواتهم، وبصورة ملحوظة، حتى أنت تتكلم معي بصوت خفيض!!

نظر إليه التاجر نظرة استغراب ثم قال:

– ماذا حدث؟ وانكشف فمه عن ابتسامة غير بريئة..

أدرك أن جاره التاجر لم يفهم عليه بل بدا عليه الاستغراب، فقرّر أن يغيّر موضوع الحديث، قال له وهو يشير إلى الجريدة:

– ما رأيك بكتّاب الزوايا؟

أجاب وهو يحدّق في وجه محمود:

– كل منهم يعتبر الزاوية كزوجته!!..

– صدقت.. وأرفق ذلك بابتسامة، ثم بإشارة من يده، وعاد مسرعاً إلى شقته لكي يقرأ الخبر في الصفحات الداخلية للجريدة!

«لم يفهم عليّ جاري التاجر، ولكن الجريدة هي التي ستفهم عليّ وتمدّني بالخبر اليقين».

وتصفّح الجريدة ولكنه لم يعثر على خبر عن هذا الانقلاب الصوتي ثم عاد يتفحّصها لعله يجد الخبر منزوياً في ركن من الجريدة لأنه قد يكن وصل الجرائد بعد أن أصبحت جاهزة للطبع، فلم يجد رئيس التحرير للخبر مكاناً إلا ركناً صغيراً، لكنه فشل في

العثور على شيء! وداهمته موجة من العطاس.. فذكرته بنوبات الدوار أخذت تعاوده وأن عليه أن يراجع الطبيب.. إنه يزور طبيباً خاصاً تقع عيادته على سقف السيل يعدّه صديقاً له وإن كان الطبيب لا يحسّ بهذه الصداقة، كل ما في الأمر أنه يعامله بلطف كسائر المرضى.. «نعم، تكلفني زيارته خمسة دنانير من مرتبي الضئيل ولكنها تهون عليّ ولا تهون عليّ كرامتي أمام أطباء الحكومة الذين يعاملون – أو معظمهم – المرضى بخشونة، لأنهم يقبضون رواتبهم من الخزينة لا من جيوب المرضى».

عندما وقف على محطة «الباص» كان حوله حشد من الناس ينتظرون «الباص» وكانوا كلهم يتكلمون بصوت خفيض! وهمّ أن يسأل أحدهم ولكنه عدل عن ذلك لأنه خشي ألاّ يفهم عليه كما لم يفهم عليه جاره التاجر، ويستغرب سؤاله كما استغربه جاره التاجر. فلجأ إلى التعليل الشخصي: «إذن، الأمر ليس قراراً من رؤساء دول العالم، وإلاّ.. فكيف يلتزم به عامّة الناس من غير أن يخرج عليه أحد منهم حتى ولو لم يكن موظفاً رسمياً.. هو انقلاب بيلوجي في طبيعة الإنسان أراده اللّه تعالى...».

وتضاعف استغرابه عندما أقبل «الباص» لا يكاد يسمع لمحركاته صوت! «غريب! لنفرض أنه حدث انقلاب بيلوجي في طبيعة الإنسان، فما بال الجماد؟؟ أهو تغير في نظام الفلك كله؟ هل يمكن أن يتغير نظام الكرة الرضية وحده ثم لا يصطدم بنظام

الكون الثالث على حالته الأولى؟ لو كان ذلك.. فليس له إلا تفسير واحد هو أن القيامة قد قربت ساعتها..».

ظل محمود يقلّب الأمر على جميع الوجوه المحتملة حتى وقف «الباص» على سقف السيل.. فكان ما سمعه هناك قد أكد لديه هذا الانقلاب في نظام الكرة الأرضية، الباعة ينادون على بضاعتهم بصوت خفيض، والمشترون يساومون بصوت خفيض، والسيارات ترسل زوامير ناعمة كأنها تَمُرّ قبل انبعاثها، على اسطوانة مشبعة ببخار الماء، ومحركاته لا يكاد يسمع لها صوت كأن مفاصل المحرك قد غطيت بالقطن الناعم.. ولكنه لم يسأل أحداً خشية أن يستغرب سؤاله كمل استغرب جاره التاجر..

في عيادة الطبيب استقبلته الممرضة / السكرتيرة، ردت عليه تحيته بابتسامة وبإشارة من يدها يعني أن تفضل اجلس، ثم قالت مطمئنة له:

- سيخرج المريض بعد عشر دقائق على الأكثر.

لم يستغرب صوتها وهو ينبعث ناعماً خفيضاً، فهذ حال الدنيا في هذا اليوم، يوم الكرة الأرضية - ولكنه سيعرف السّر في نشرة أخبار العاشرة أو الثانية عشرة أو الثانية أو في أي نشرة من أي محطة إذاعة.. فليصبر، وتذكر قول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

ويأتيك بالأنباء من لم تُزوّدِ

بعد وقت لم يستطع تقديره.. خرج المريض فنهضت الممرضة وفتحت باب الطبيب وبسطت يدها أمام صدرها داعية ، محموداً – للدخول

– مِمَ تشكو؟

– من دوار يعاودني بين آن وآخر.

– منذ متى؟

– منذ شهر؟

وبعد بضعة أسئلة أخرى توجهت أنظار الطبي إلى منطقة الرأس..

فحص الطبيب أنفه وحلقه وأذنية، ثم قال له وهو يبتسم:

– بسيطة.. أنت مصاب باحتقان في الأنف على أثر رشحة لم تَشْفَ منها تماماً، وامتدّ الاحتقان إلى الأذن الداخلية فضغط على سائلها وأضيف إلى ذلك أن الصماخ (صمغ الأذن) يغطي طبلتي الأذنين..

– إذن، الأمر معقّد!

– لا، سأكتب له دواء للاحتقان، وآخر للدوار، سأغسل أذنيك، وستزول كل الأعراض خلال يومين، إن شاء اللّه.

– شكراً يا دكتور.

انهمك الطبيب بغسل الأذن اليمنى وهو صامت وعندما أزال منها الصماخ حشاها بالقطن، ثم استدار إلى الثانية.. ولم يكلم – محموداً – إلا بعد أن حشا أذنه الثانية بلقطن... قال له مبتسماً:

– الآن تستطيع أن تعود إلى بيتك مطمئناً.. خذ الدواء في

مواعيده واسترح في الفراش يومين، وأَقِلَّ من الحركة، ولا تنزع القطن من أذنيك إلا بعد يومين! طبعاً يمكنك أن تغيّره إذا شئت في أي وقت.. المهم ألاّ تفتح أذنيك للهواء والغبار خلال يومين.

ودّع محمود الطبيب، ولم يَنْسَ أن يقول له:

– أرجو أن تسمح لي أن أتصل بك عند أي طارئ.

– اعتبرني في خدمتك.

دخل محمود صيدلية فاشترى الدواء واشترى لفافة قطن.. وعندما وصل موقف «الباص» على سقف السيل.. خطر بباله أن يغيّر القطن الذي حشاه في أذنيه الطبيب بقطن جديد.. صدم عندما نزع القطن من كلتا أذنيه!! عاد كلّ شيء إلى ما كان عليه بالأمس لم تطق الكرة الأرضية الهدوء لأكثر من بضع ساعات: أصوات الباعة تجرح صماخ الأذن، زوامير السيارات ترهق الأعصاب، محركاتها تئن وتصرخ، حتى هؤلاء الذين يقفون على المحطة.. أصواتهم تصمّ الآذان.. ومضت لحظات وهو لا يجد لهذا الذي جرى تفسيراً، فقد عطلت الدهشة المضادة عقله عن التفكير وشلّت جسده. وفجأة – بعد أن زايلته الدهشة – أدرك أن الدنيا لم «تتغير» وإنما التغير جاء من قِبَلِ أذنيه اللتين كان يسدّ سمعهما الصماخ!!.

الأجــل

أحس الشيخ عبد الفتاح بدنو أجله: آلام مبرحة في منطقة «البروستات»، حرارة عالية، انهيار في القوة.. صَابَرَ حتى الفجر، عنئذٍ طلب من زوجته الثالثة (فقد توفي قبلها اثنتان) أن تتصل تلفونيّاً مع ابنه الوحيد – محمود – الذي يسكن في مزرعتهم على بعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة التي تقيم فيها العائلة، وتخبره بحالته، ثم تخبر من تزوج من بناته العشر (أريد أن أشاهد ابني وبناتي قبل أن أفارق الحياة)..

قبل شهر واحد فقط كانت الأسرة بكامل أفرادها تحتفل بالذكرى الخامسة والتسعين لميلاد عميدهم الشيخ عبد الفتاح، وكان الرجل متماسكاً حاد الذاكرة، على الرغم من كبر سنه، سليم العقل، انطلق صوت ابنه محمود»:

– عقبال المئة والخمسين سنة يا أبتي..

وتبعته أصوات البنات والزوجة مهنئة بهذه الذكرى العزيزة...

قال الشيخ:

أشكركم جميعاً، ولكن ماذا ينتظر الذي عاش خمسة

وتسعين عاماً سوى رحمة ربه، ونسأل اللّه أن يصدق فِيَّ قول الرسول الكريم [« خيرُكم من طال عُمُرُهُ وحَسُنَ عملُه » .

قال الجميع:

– بعيد عنك الشر يا أبانا.. لمن نفزغ في الملمات بعدك، وأين نجد الرأي الناضج والحكمة التي تنبع من تجربة عميقة؟

– لقد عشت ما فيه الكفاية يا أبنائي، عشت الحياة حلوها ومرها.. أدركت الأردن وليس فيها إِلا بضع مدارس تعلم بالعربية والتركية.. درست في مدرسة المدينة حتى الصف السادس ثم أرسلني أبي للدراسة في دمشق، ومكثت هناك ثلاث سنوات.. قرأت، خلال هذه الحياة، الكثير، ورأيت الكثير.. وخبرت الكثير.. أدركت نهاية الأتراك في الأردن والمشرق العربي، وكنت أحد الذين استقبلوا الأمير عبد الله في القطرانة، كنت شاباً في الخامسة والعشرين تقريباً.

قال محمود:

– إِذن، طرأ على الأدرن تقدم كبير خلال هذه السنوات السبعين..

– بدأت اليقظة، يا بني في مصر مع إِطلالة حملة نابليون، لا تصدق الذين يقولون: لم يكن لحملة نابليون علاقة بيقظة مصر ثم العالم العربي، الحملة نبهت العقول وحركت الوجدان وجعلت النبهاء يدركون أن العلم هو وسيلة التقدم.. فبدأت مصر تدخل ميدان التعليم ثم تلتها بعد مطلع القرن العشرين بعقدين، بلاد

المشرق العربي ومنها الأردن، إنه مد حضاري انتشر في بلاد العالم الثالث كلها على تفاوت.

قال محمود:

– إذن الغرب له فضل على المشرق بهذا المد العلمي؟.

– نعم له فضل المد العلمي، ولكنه أساء بتوجيه العلم في بلادنا وبلاده، الفلسفة التي كانت توجه هذا العلم هي الفلسفة النفعية، وهذه الفلسفة قادت إلى الرأسمالية التي جعلت التفاوت فاحشاً بين الغني والفقير، وإلى الفردية التي انعدم فيها التعاون، وفي بلاد العالم الثالث أضيف إلى ذلك السلوك الاستهلاكي، كنا منتجين فأصبحنا مستهلكين، كنّا مجتمع كفاية فأصبحنا مجتمعاً غارقاً بالديون.. العلمُ ليكون نافعاً يحتاج إلى مبدأ سليم، فلو أخذنا العلم وانطلقنا به على قاعدة الاسلام لاختلفت النتائج...

قال بعض البنات:

– لهذا وجهت محموداً نحو دراسة الهندسة الزراعية، لكي يشرف على مزرعتنا، فيكون منتجاً لا مستهلكاً فحسب، وهز الشيخ رأسه علامة الموافقة وطال الحديث بين الشيخ وبناته وابنه الوحيد، فكانت ليلة سعيدة..)

بعد بضعة أيام أصيب الشيخ بمرض فارتفعت درجة حرارته، مما أدّى إلى استدعاء محمود والبنات.

وعندما وصل محمود كان أكثر بنات الشيخ يجلسن حوله واجمات وقف عند رأس أبيه، وضع يده على جبهته، أحسَّ بحرارتها إِحساساً واضحاً، نَقَلَ يده إِلى زنده، كان نبضه ضعيفاً، فتح الشيخ عينيه المغمضتين، رأى محموداً، أشار إِليه أن أجلسني، جلس متكئاً على مساند، نظر في وجوه بناته وزوجته ثم نظر إِلى محمود.

– يا بني، أوصيك بأمك الثانية خيراً، فقد خدمتني في شيخوختي، وقدمت رغبتي على رغبتها في كل شيء، ولم تخلف أولاداً ذكوراً، فكن أنت ولدها، وأوصيك بأخواتك خيراً، وَزِّعْ التركة على الورثة بالعدل تبعاً لما يقتضيه الشرع، لأن الشرع هو العدل، حافظ على قلبك نظيفاً مليئاً بالإِيمان، اجعل العدل شعارك، تسامح مع الناس، واجعل الحق الضائع لك لا عليك، ان كان لابد من ضياع الحق.. لقد عشت خمسة وتسعين عاماً، فما وجدت حلاوة تعدل حلاوة الإِيمان والعدل.

أحس الشيخ بإِجهاد فتوقف عن الكلام، وألقى برأسه على المساند.. لحظات ثم فتح عينيه، أسرع محمود يطمئنه:

– يا أبي لا تجهد نفسك، نحن – جميعا – تربيتك، ونظل كما عهدتنا، ثم أردف:

اسمح لي يا أبي أن آخذك إِلى المستشفى..

– الشافي هو الله ﴿وإِذا مَرِضتُ فَهْوَ يَشفِينِ﴾ ولكن لا بأس

فالطب والدواء من وسائل اللّه في الشفاء.

اجتمع إلى الشيخ ثلاثة أطباء فحصوه فحصاً دقيقاً وأجرو تحاليل على عجل.. بعد ساعتين قال رئيس الأطباء لمحمود وجمهرة من أقارب الشيخ وأصدقائه:

- الأعضاء الرئيسية في جسم الشيخ سليمة، ولكنه مصاب بالتهاب حاد في «البروستات» مما يستدعي عملية جراحية سريعة، سنجريها غداً إذا وافقتم على ذلك.. بعد مشاورات قصيرة بين محمود وأقاربه وافقوا على إجراء العملية، وأبلغ محمود الشيخ بذلك، قال الشيخ:

- لست متمسكاً بالحياة بعد هذا العمر الطويل، ولكني لست كارهاً لها ولأن الحياة هبة ربانية يجب أن نحافظ عليها بما نعرف من وسائل المحافظة، ثم يبقى القدر بيد الله، في الحياة والموت، لا بأس بالعملية مادامت محاولة للحفاظ على هبة الله..

إطمأن محمود على وضع أبيه في المستشفى، وعاد إلى بيته في المزرعة بعد الثامنة ليلاً، لم ينم تلك الليلة إلا قليلاً شرد خياله في لحظة من اللحظات فألفى أباه قد مات على أثر العملية.. «شيخ كبير لم يتحمل المخدر والجراحة» وتخيل الجنازة المهيبة والمعزين يتوافدون على بيت أبيه الكبير في وسط المدينة، ثم بدت له صورة الورثة يطالبون بتقسيم التركة، خلاف سينشب على تقسيم بعض الممتلكات الجامدة... البيت الكبير، المزرعة الواسعة.. لم يفق

محمود من خياله إلا على أثر حركة من ساق زوجته وقد طوحت بها فوق الغطاء.. استعاذ باللّه من الشيطان، أيقظ زوجته وطلب منها أن تعد له فنجان قهوة، لم تكن القهوة بغيته، لكنه أراد أن يخرج من وحدته ليخرج من هذه الخيالات الملعونة..

في الصباح وصل محمود إلى المستشفى مبكراً، بعد ساعة احتشد عدد كبير من أقارب الشيخ وأصدقائه ينتظرون متوجسين نتيجة العملية.. بعد ساعتين ونصف ساعة خرج الطبيب الجراح.. توجه نحو محمود فالتف حوله عدد كبير من الرجال:

– العملية بمشيئة الله نجحت، سيعود الشيخ إلى وعيه بعد نصف ساعة، ولكن لا يجوز أن يزوره أحد ولو بكلمة لمدة يومين، وسأعطي تعليماتي للممرضات، يحتاج الشيخ إلى بعض الوقت في غرفة الإنعاش.

أمضى أقارب الشيخ ساعة في الحديث حول ما قاله الطبيب الجراح، وحول العلمية، والزيارة المرتقبة له بعد يومين ثم انفضوا إلى شأنهم، ولم يبق إلا محمود.

وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً دخلت الممرضة نظرت إلى محمود الذي إلى جانب سرير أبيه، بعد أن أُخرج من غرفة الإنعاش... كان الإرهاق بادياً على ملامح الشاب، خاطبته الممرضة:

– أنت مرهق يا محمود!

– لم أنم البارحة ولا هذا اليوم.

– وهل أكلت طعاماً.

– لم أذق الطعام منذ صباح أمس، عندما استدعيت بسبب مرض أبي.

– أنصحك أن تغادر الآن، فالشيخ يتحسن ونحن نعتني به العناية اللازمة، لا تذهب إلى المزرعة، فمن الخطورة أن تقود السيارة وأنت في هذه الحال، كل طعاماً ثم نم في بيت أبيك هنا في المدينة.

شكرها محمود بألفاظ صريحة ثم ودعها بإشارة من يده، فودعته بإيمائة من رأسها وعلى فمها ابتسامة رقيقة.

فتح باب السيارة، جلس وراء المقود، أدار المفتاح في مكانه، وكلمات الممرضة ترن في أذنيه ولكن فجأة غمره شعور بأن ما عاناه هذين اليومين من تعب وإرهاق وترقب.. لن يسمحه إلا بسمة من شفتي زوجته الحانية وكلمات رقيقة تهدئ خاطره بها، وإلا قبلات شفيفة يطبعها على جبين صغيره الذي يكون نائماً في مثل هذا الوقت، وامتد شعاع من النور يصل بين عينيه ووجه زوجته في داره بالمزرعة.. وانطلقت السيارة مخلفة وراءها سحابة من الدخان..

استيقظت زوجة محمود بعد إغفاءة قصيرة، الساعة الواحدة أحست بقلق (لماذا لم يعد محمود، ولم يتصل بي؟) اتصلت مع المستشفى، أجابتها الممرضة.

– محمود غادر الساعة الثانية عشرة، ونصحت له أن يبيت في دار أبيه في المدينة، لأنه مرهق..

فوراً... اتصلت مع البيت الكبير في المدينة، أجابت زوجة الشيخ.

– هالو..

– محمود عندكم.

– محمود عند أبيه في المستشفى – قالت الزوجة – الممرضة أخبرتني أنه غادر متوجهاً إِليكم.

– أبداً لم يأتِ.

ازداد قلقها، اتصلت مع سعيد ابن عم محمود، عبرت له عن قلقها! قال لها: إِنه سيتولى المهمة... أمضى ساعتين في الاتصال مع أقارب محمود وأصدقائه الذين يمكن أن يبيت عندهم.. كل يؤكد له أنه لم يَرَهُ بعد أن غادر المستشفى وظل محمود عند أبيه..

في الساعة الخامسة كان قد اجتمع مع سعيد أربعة من الأقارب، تشاوروا في الأمر، قرروا أن ينطلقوا باتجاه المزرعة يمسحون الطريق فلعل السيارة قد تعطلت أو لعل..! مع بزوغ الشمس كانت السيارة تقطع طريقاً في وسط الجبل وتطل على واد سحيق.. نظر السائق فرأى سيارة زرقاء مرتطمة بصخور الوادي.. أخبر المجموعة، لاحظ سعيد أن لونها كلون سيارة محمود، أوقف السائق السيارة على أقصى يمين الطريق، وانحدر الجميع نحو الوادي.. كان سعيد أسبقهم،.. أطل من شباك

السيارة المحطم، ثم رفع رأسه على عجل وقد مال بجذعه نحو جسم السيارة متكئاً على كَفٍّ يده الذي بجسم السيارة، وصاح بصوت تردد في جنبات الوادي:

«إِنا للّه وإِنا إِليه راجعون»

دم في «عيون قارة»[1]

كـان نومـه في تلك الليلة.. غـراراً.. (يارب، مـاذا نفـعل؟ ننهض مـبكرين، ونمضي إِلى مـوقف العـمّـال، ننتظر أحـداً من اليهود الملاعين، يدعونا للعمل في مزرعته أو لحمل الاسمنت في بنايته التي يقيمها... ولكن لم يدعونا أحد.. أسبوع مضى دون عمل، ودون أن نكسب قرشاً واحداً... كيف نعيش دون أن نكسب نقوداً؟ من أين لنا ثمن الخبز والبندورة؟ وسعاد.. الصغيرة، ذات الثلاثة أعوام، كسرت قلبي أمس وهي تبكي.. تريد عروساً كعروس ابنة الجيران، ولكن من أين نأتي بالنقود التي نشتري بها... لعبة!؟ اذا اشتغلت غداً فإِنني سأشتري لعبة لها قبل أن اشتري لنا خبزاً وبندورة يا ربّ! ألا يكفي أننا في سجن كبير. الذي يعيش في جحيم الاحتلال يعيش في سجن كبير، فأينما توجّه يرقبه اليهود، وأينما انتقل يطلبون منه إِبراز الهوية، أبناءِ الوطن أصبحوا غرباء، والغرباء هم أبناء الوطن! أنعاني السجن في معيشتنا الخاصّة، نسجن بالحاجة وضيق ذات اليد،

---

(١) قرية فلسطينية هاجم اليهود فيها العمال الفلسطينيين وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

كما نعاني السجن في حياتنا العامّة.. أسأل اللّه أن ييّسر لي عملاً... غداً).

وأرق زوجته بكاء صغيرتها – سعاد – في اليوم الماضي.. (نتحمل الجوع، ولكن كيف نتحمل – يا ربّ – بكاء أطفالنا!! يطلبون مالا نستطيع أن نقدّمه إِليهم.. أُرْهِقَ قلب – سعاد – وهي تبكي، تريد عروساً كعروس ابنة الجيران ولكن يا صغيرتي يا حبيبة قلبي، يا نور عيني، يا دموعي المسفوحة من أين نأتي بالنقود لنشتري لك لعبة؟ أبوك المسكين – لم يجد عملاً منذ أسبوع! يقضي نصف يومه في الشمس ينتظر أحداً من اليهود المجرمين يدعوهم للعمل، أيّ عمل، مهما كان شاقاً، وبأية أجرة مهما كانت قليلة.. ولكن يعود مكسور الخاطر حزيناً.. اللّه اللّه – يا – رشيد – إِنك تعاني أكثر مما نعاني.. تحمل همك، وقبل همك تحمل همّ زوجتك وابنتك سعاد! تحاول أن تظهر بمظهر القوة والتجلد.. ولكني أفاجئك في لحظات وأنت تبكي.. تسرع تكفكف دموعك، لكيلا تبدو ضعيفاً، بل لكيلا تكسر قلبي فأنت تريد أن تحتفظ بهمومك لنفسك، لا تريد أن تحمّل أنثى شيئاً من همومك، ولا تريد أن يبدو ذلك لطفلتك الصغيرة.. لك اللّه يا رشيد!!)

(ألا يكفيك ما أنت فيه من هم داخلي! قتل الصهاينة المجرمون ابن أخيك الصغير قبل اسبوع، لا يزيد عمره عن عشر سنوات، كان

يجمع الحجارة للفتيان، لا حظوا سرعته ونشاطه.. صوّب أحدهم بندقيته نحوه.. فأرداه – على الفور – قتيلاً... أصابك ذلك بجرح نازف، وألم غير مفارق.. بكيت عندما عدت من يوم خائب ووجدته قد أدرج في أكفانه كأنه طير من طيور الجنّة، لأن أخاك قد بلغ الستين، وليس له من الأطفال الذكور إلا – عليّ – هذا الطفل الذي قتله رصاص العدو والجريمة.. بكيت بكاءً مراً، وكان يسمع لك نشيج كأنه أنين، لأنك كنت تريد أن تحبس دمعك وتتجلد أمام الناس، ولكن عواطفك انفجرت رغماً عنك.. عندما رأيت أخاك الشيخ يبكي طفله الوحيد بدموع غزار..)

مع الفجر يوم الأحد ٢٠/٥/١٩٩٠ استيقظ الزوجان المهمومان... توضآ وصليا الفجر.. بعد ذلك.. رشيد انشغل بإصلاح نعليه، وزوجته فاطمة أخرجت (وابور الكاز) من تحت طاولة قديمة ووضعته فوقها ثم أشعلت ناره ووضعت عليه إبريق الشاي.. ثم مضت إلى جارتها – أم أحمد – وأخذت من عندها رغيفين من الخبز.. لم تطلب غير الخبز، ولكن – أم أحمد – تبرّعت من تلقاء نفسها بتزويدها بكوب من الزيت:

– خذي هذا الزيت – غموساً – لأبي سعاد.

– شكراً يا خالتي أم أحمد – يكفي الخبز.

– لا يا بنيّتي، خذيه، الحال واحدة.. وحقكم علينا، يجب أن نتقاسم السّراء والضّراء.. نحن أسرة واحدة، في هذا الوطن

المعذّب.. شكرتها فاطمة وعادت بالخبز والزيت...

أفطر رشيد.. مسح فمه بيده، تقدم نحو سعاد وهي نائمة، وطبع قبلة على جبهتها، ثم ودع زوجته ومضى إلى مكان تجمع العمال في (عيون قارة) ينتظر من اللّه الفرج... وقفت فاطمة على الباب تودعه وتدعو له بالتوفيق، ثم مسحت بأطراف أصابعها دمعتين سقطتا على وجنتيها، وهي تهم بالاستدارة نحو الداخل..

في مكان تجمع العمل التقى حوالي ثلاثين عاملاً، كل منهم ينتظر أن يدعوه أحد المجرمين الصهاينة للعمل عنده، وكانوا – بانتظار الفرج – يتبادلون الكلمات باقتضاب، قال رشيد:

– قبل ليلتين قال الشيخ محمود: «لو تحمّل العرب مسؤوليتهم... لما احتجتم إلى العمل عند الأعداء..».

نظر إليه عامل آخر وسأل:

– كيف؟

– قال الشيخ: «توظف الدول العربية الغنية رؤوس أموال في مشاريع في الضفة الغربية.. لا يراد منها الربح المالي..»

قال عامل آخر مستفسراً:

– إذن، ماذا يراد منها :

– قال رشيد: سألناه نحن الحاضرون، فقال: يراد منها تمكيننا من الصمود أولاً، ثم تحقيق هدفين آخرين بعد ذلك».

سأل عامل ثالث: ما هما؟

قال رشيد: قال الشيخ: «يستغني أبناؤنا عن العمل عند الصهاينة الأعداء.. وهذا تعزيز للكرامة الوطنية، لكرامة الإنسان الفلسطيني والعامل الفلسطيني.. ويسبب ذلك أزمة عند الإسرائيليين، لأنهم يعتمدون في الأعمال اليدوّية الأوليه على أبنائنا العمّال، وذلك يضعف من قدرة الاقتصاد الإسرائيلي.. وأضف: صحيح أن اسرائيل لا تعتمد في تمويل مشاريعها وفي الإنفاق العام على اقتصادها الداخلي، لأن أمريكا والدول الغربية مستعدة أن تعوضها عن أي خسارة ناجمة عن امتناع عمالنا عن العمل عندها، في المصانع والمزارع، وأعمال البناء.. ولكن اسرائيل تريد شيئاً آخر».

قال عامل رابع: ما هذا الشيء الآخر؟

قال رشيد: قال الشيخ محمود: «إنها تريد أن تظهر بأنها دولة متقدمة في المنطقة.. تنتج صناعات متفوقة، وثماراً محسنة تغزو بهما الأسواق الخارجية على اعتبار أن ذلك خير دليل مادي على تقدمها وحضارتها، فهي تنتج أنماطاً زراعية محسنة وأنواعاً من الصناعات متقدّمة..»

وفجأة.. طلع على هؤلاءِ العمال جندي صهيوني يحمل بندقية من نوع (م- ١٦).. وقف على بعد ستة أمتار من العمال، وألقى اليهم أمراً: ليبرز كل منكم هويته، اصطفوا صفَاً واحداً.. بسرعة.. وقفت الكلمات في حلوقهم..

أسرع كل يأخذ مكانه في الصف، أسقط نظره إلى جبيته.. ردّ يده اليها ليستخرج الهويّة.. لم يكن هدف الجندي الصهيوني «عومي بوبر» ما أمرهم به، وإنما هي حيلة مدبرة أراد أن يوجه بها اهتمامهم إلى غير هدفه الذي دبّره مع جماعته من الليل.. تقدّم خطوتين.. فوراً قدّم رجله اليسرى وثبتها في الأرض.. وضع عقب بندقيته في كتفه الأيمن. مصوباً فوّهتها نحو العمال... ضغط على الزّناد حرّكها، وعقبها راسٍ في كتفه، من اليمين إلى الشمال، انطلقت الرصاصات سريعة تترى.. خلال عشرين ثانية.. خرّ ثمانية عمال صرعى. كان أحدهم «رشيداً» وسقط عشرة عمال جرحى، كان أحدهم أخا فاطمة، وآخر هو «أحمد» ابن الجارة، أم أحمد. انفجر الدم الذكيّ، منسباً على وجه التراب الطهور، يروي ظمأه إلى الحياة التي لا يعيدها إليه شيء كدم الشهداء.

رحلة موحشة

قبل أن يركب سيّارة الأجرة المتجهة إِلى العقبة.. قال للسائق:

– معي ملف أريد أن أضعه في استعلامات التلفزيون.. فهل تأذن لي بدقيقتين تقف فيهما السيارة قرب التلفزيون.. لأضع الملف هنا؟.

قال السائق بملامح تخلو من تعبير ما!.

– خذ موافقة الركاب.

أطّل من شباك السيارة وحيّا الجميع ثم عرض عليهم الأمر قال شاب في العشرين:

– أنا على عجل، لا أستطيع أن أتأخّر..

قال رجل في الأربعين يبدو من مظهرة أنه عامل باليوميّة:

– لا تنكد على السائق والركّاب يا أستاذ..

استاء الرجل، تحير في الأمر، كاد أن ينصرف لولا أن خاطبه شباب في حدود الثلاثين من العمر، يلبس بذلة وربطة عنق:

– توكل على اللّه، اركب ننتظرك دقيقتين..

هنا قال له السائق، مقطباً بين حاجبيّه:

– تدفع ربع دينار مقابل الوقوف..

هز الأستاذ رأسه موافقاً، وهو موظّف في وزارة السياحة. مع أنه في الأربعين، وعليه سيما الوقار،، غير أنه أوصل الملف هرولة وعاد هرولة، لكيلا يتذمر الركاب أو يوجه أحدهم ملاحظة تؤذيه..

استأنفت السيارة سيرها.. وساد الصمت، كلٌّ انشغل بنفسه يحدثها.. الأستاذ.. في سرهّ «متى يتمّ نقلي من استراحة الكرك إلى استراحة العقبة؟ في العقبة.. أكون عند أهلي، وربّما وجدت عملاً إضافياً. قبل ثلاث سنوات وعدني معالي الوزير! نعم، هو معالي الوزير رغم كل شيء!! وعدني بالنقل إلى العقبة في أقرب فرصة، لكنّ الفرصة لم تأتِ بعد!! فارق الوزارة قبل أن تأتي الفرصة، وحلّ محله صاحب معالٍ جديد.. الكذاب.. جاملني وتبسّط معي وودعني إلى الباب، ولكنه لم يفِ بوعده! «يعطيك من طرف اللسان حلاوة..»، ومما يجلب الحنق أن ليس هذا أسلوبه من الجميع.. بالعكس.. أصدقاؤه في الوزارة ومن هم من شلته أعطى بعضهم علاوات غير استحقاق ورقىّ بعضهم إلى مراكز لا يستحقونها.. ولكنه أقصى بعض من لا يحب وجمدّ بعضهم – وأنا منهم – وقاعد آخرين.. وزير «لمفاوي» لا يشعر بالسعادة إلا أذا أحدث تغيراً في الوظائف ومن يشغلونها كل شهر.. يتوق إلى أن يشعر به الناس شعوراً قوياً، أن يرهبوه على نعومة ملمسة، وأن يظل حاضراً في أذهانهم وأنفسهم، يقتطع..

وقتاً كبيراً من زمن كل موظف للحديث عنه كل يوم.. ماذا قال، وماذا فعل، ماذا أجرى من تغيرات.. عندما جاء إلى الوزارة قبل ثلاث سنوات استبشرت خيراً، رجل مجرّب – قلت في نفسي، وتحدثت لأصدقائي – لابدّ أنه أدرك من تجاربه السابقة أن تغيير مواقع الأشخاص ليس تغييراً، وإنما التغيير هو تغيير الأفكار.. لذلك: أعتقد أنه في هذه المرة – هكذا كنت أقول لن يوجه عنايته إلى الأشخاص وإنما يوجهها إلى الأفكار.. مثلاً: سيكّون لجنة يشرف عليها، تقوم بتأليف كتاب عن تاريخ الأردن منذ مملكة عمون إلى أيامنا الحاضرة.. فيقرأه الأردني فيزداد حباً لبلده وتعلقاً به، ويقرأه السائح الأجنبي الذي يوجه له هذا الكتاب.. أصلاً فيحترم عراقة هذه الديار.. لقد مرّت عليها أمم شتّى، تركت آثارها فيها، حتى جاء الإسلام فنفخ فيها روحاً حضارية فكريّة، وأقام العدل في ربوعها، وجعل كلمة اللّه هي العليا.. ثم جاء العصر الحاضر فعاد لها رونق الماضي بما وهبه لها تيار الحضارة الذي امتدّ إلى جميع أمم الأرض في هذه الأيام على تفاوت، لأن حضارة اليوم قامت على مواصلات واتصالات سريعة، جعلت ما بشرق الأرض سرعان ما ينتقل إلى غربها، والعكس صحيح... سيأمر بأن يطبع من هذا الكتاب مئات الآلاف من النسخ، ليكون في يد كل مواطن قادر على القراءة نسخة، ويكون في يد كل أجنبي نسخة، مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، باعتبارها، في هذا العصر، لغة عالمية.. ثم يأمر بإعداد برنامج متكامل لترتيب جميع الموظفين

العاملين في السياحة، على حسن التعامل مع السيّاح، ومع أبناء الوطن أوّلاً . . . فما دور وزارة السياحة؟ . .

لكّن الرجل خيّب ظني . . وعاد – كشأنه في شبابه – يحرّك الأشخاص وكأنهم أحجار شطرنج . . يرفع أقواماً بلا وجه حق، ويضع آخرين بلا وجه حق . . اللّهم إنها الشلليّة، ومحاباة الأنصار الحزبييّن،،! متى يتخلص بلدنا من هذا النمط من الرجال الذي لا يخدم فكر الأمة، ولا ينصر الحق، وإنما يتحكم فيه الهوى، والرغبة في أن يكون في بؤرة الاهتمام ائماً . . » .

وأعاده إلى النظر إلى الصحراء الممتدة على جانبي الطريق تخفيف السائق لسرعة السيارة بشكل مفاجئ، فقد كان يعبر الطريق أمام لسيارة قطيع من الجمال . . « لماذا هذه الأرض جرداء؟ يمكن أن ينبط ماؤها الجوفي وأن تحوّل إلى جنان؟ . إننا – في الأردن بل في العالم العربي عامة . . لا نستطيع أن ننافس في الصناعة ، ولكننا إذا أخلصنا النية نستطيع أن ننافس في الزراعة . . أن نزرع ما يوصلنا إلى حالة اكتفاء ذاتي حتى لا يظّل الأمريكي المؤيد لدولة الباطل عدوّنا، ولوجوده فوق أرضنا . يتحكّم بقوتنا اليومي، فيشل حركة الدفاع والمقاومة لدينا . . ، ويضعف من قدرتنا على اتخاذ القرارات الحّرة . . أسرعي أيتها السيارة لنصل أهلنا . . » .

الشاب . . طالب في الجامعة : « . . لابدّ من العمل خلال الصيف في الميناء كما عملت في العام الماضي . . وإلاّ . . فكيف

أتمكن من الدراسة في العام القادم.. أبي فقير لا يملك إلا متجراً صغيراً لا يدرّ عليه إلا ثلاثة دنانير أو أربعة يومياً.. ذات الشعر المصبوغ باللون الأشقر ابتسمت في وجهي، وعندما رأيتها في اليوم الثاني أقبلت عليها محيّياً فرحبت بي، وسارت إلى جانبي ساعة، ولكنها تركتني دون كلمة وداع.. بعد أن عرفت أني فقير لا أستطيع أن أعطيها ما تصبغ به شعرها الذي تكلف صبغته سبعين ديناراً شهرياً، ولا ما تشتري به فساتين، وإلاّ... فمن أين لها أن تشتري به فساتين، وإلاّ... فمن أين لها ما تشتري به من ثياب، تظهر بثوب جديد كل يوم، ولا تكاد تعود إلى ارتداء واحد منها خلال الشهر كله..؟ تجربة استفدت منها.. لن أتقدم إلى خطبة فتاة، في المستقبل، من طبقة أرستقراطية، ترهقني بطلباتها ثم تحتقرني، ولا فتاة من طبقتي ولكنها تعاني من عقدة الارستقراطية، تريد أن تظهر بأنها من الأغنياء.. سأتزوج من ترضى بالقليل، تقدّر ظروفي وتؤمن أن القيمة في الأخلاق، وفي السلوك الحسن...».

ونظر بطرف عينه إلى الفتاة التي كانت تجلس إلى جانبه، ولم يستطيع أن يتفحصها لأن عيون الآخرين تراقبه.. «لا شأن لي بها»، لعلها آتية تبحث عن عمل مثلي.. ولعلّ العمل يجمع بيننا فأتمكن من التحديق بها.. ولكن أيستقبلني أبو محمود؟ أيرحب بي؟ أييسر لي عملاً، كما يسره لي في العام الماضي.. أمي

أوصتني بالاستقامة، والدموع تترقرق في عينها.. أبي قال لي، عندما عرجّت عليه في الدكان، لأودعه: (استودع اللّه دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك.. احترس من شرار الناس، وكن من خيارهم على حذر..)، هذه الفتاة.. حلوة، ولكن منظرها يدل على أنها فقيرة.. من يدري لعل الظروف تجمع بيننا حبيبين ثم زوجين.. الفقر يجمع بين الفقراء، والمصيبة توحدّ بين الناس».

ثم غلبه النعاس..

العامل.. ودّعت أم العيال، وليس لديها إلاّ خمسة دنانير.. كم يوماً تكفيها خمسة دنانير؟ وهل أجد عملاً في العقبة..؟ امتدت البطالة حتى إلى العمال الذين يعملون بأيديهم ويحملون على ظهورهم.. الولد الكبير.. خائب، ترك المدرسة قبل أن يحصل على الشهادة، ولد جاهل، كأنه لا يرى ما أنا فيه، لو تعلمت لكنت موظفاً أقبض راتباً كل آخر شهر.. البنت ذكية ومؤدبة، ولكنها لم تجد عملاً. من سنتين أنهت كلية المجتمع، ولكنها لم تترك بنكاً ولا مؤسسة إلاّ عرضت نفسها عليها.. فلم توفق في عمل! ليتها تجد زوجاً ولكن من يقبل على الزواج من بنات العمّال الفقراء.؟ الزواج.. ستره، ونحن ننتظر الفرج.. الفقير مسكين، والعامل في هذه الأيام مسكين.

العمّال الذين قتلوا في غزة في (عيون قارة).. ينتظرون في مكان تجمع العمّال حتى يأتي من يعرض عليهم العمل بالمياومة..

هم مساكين، فقد ذهبوا ضحيّة الغدر والفقر.. جندي يهودي حاقد.. أطلق عليهم وابلاً من الرصاص كما ذكرت الأخبار، ليس مجنوناً، بل هو حاقد.. ما ذنبهم وقد تركوا عائلاتهم وهم يمنون النفس أن يعودوا في المساء يحملون لعائلاتهم الخبز والبطاطا والشاي والسكر.. وما مصيري أنا؟ أتسقط عليّ رافعة أو شوال مملوء بمادة ثقيلة.؟ يرقني بالأرض.. أم أعود إلى أم العيال أحمل الهدايا والنقود، وأشتري لعبة لابنتي الصغيرة... انتحرت بكاء يوم أمس، رأت بنت الجيران معها عروس، وجاءت تبكي تطلب أن نشتري لها عروساً.. العروس بدينار، ونحن في حاجة إلى الدينار لنشتري به طعاماً.. الطعام أولى من اللعبة.. لن تموت إذا لم نشترِ لها لعبة، ولكنها تموت إذا لم تأكل خبزاً... ربّنا ييسر، إذا وجدت عملاً... فستتغير الأمور..

الطبيب الشاب.. لماذا وجهت أنا دون غيري إلى العقبة؟ لا بأس، العمل في العقبة خير من حياة التسوّل، عامين قضيتهما عاطلاً عن العمل بعد التخرج من الجامعة، كان أبي يصرف عليّ، حتى ثمن الدخان كان يعطينيه! لقد فكّرت أن أفتح محلّ خضر.. خير من أن أظّل عالة على أبي وقد أصبحت رجلاً في السابعة والعشرين أحمل شهادة في الطب العام.. أعتبر العمل في العقبة خدمة للوطن.. هذا حق لو كان التعيين جاء حسب معايير محددّة، كالعلامة أو الأقدمية في التخرج ولكن التعيين ومكان العمل تحكمت به الوساط.

ابن المتعهد الكبير عيّن في أطراف عمان، وابن وكيل الوزراء عيّن في السلط. . . . أما أنا لأن أبي لا يملك إلا متجراً صغيراً فقد عُينت في العقبة. . مع أني أعلى منهما معدّلاً. . حق أن يخدم الإنسان وطنه، بل أن يخدم في أي رقعة من وطنه، ولكن وطنه الذي يعدل بين الجميع. . . الآن عرفت لماذا جعل الإسلام العدل مبدأ رئيسياً من مبادئ التعامل البشري في إطار المجتمع العام. . ، أما قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَومٍ عَلَى أَلاّ تَعْدِلُوا﴾ أي في هذا القول حتى بُغْضُ الآخرين يجب ألا. . يحول بين صاحب السلطة وبين العدل مع من يبغض؟ أن الظلم حقد أسود تضيق به النفوس فتتفجر بالغضب العارم الذي يلتهم الأخضر واليابس، وكأنه انفجار الضغط في جسدي. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَذينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ).

الفتاة. . «ما العمل؟ أسبوعاً كاملاً قضيته في بيت خالي في عـمّان، وأنا في كل يوم أطوفّ بعدد من الدوائر والمؤسسات، ولكن لا جدوى. . ديوان الخدمة المدنية. . وهذه إهانة للموظفين إذن، لم يرضوا إلاّ أن يصفوهم بأوصاف الخدم. . . ديوان الخدمة، فالموظف إذن خادم، أما وجدوا كلمة خيراً من هذه الكلمة؟. . ما عليّ، ديوان الخدمة المدنية، موظف فيه يشرف على الجدول ويتكلم من مُنطقة بين الأنف والفم، تعالياً على المراجعين، كأنه ليس خادماً في ديوان خدمة، قال لي: ترتيبي في العقبة. . السادس، ولكن متى تعيّن صاحبة الترتيب السادس في تخصص

الشريعة؟ هيهات.. العقبة لا تعيّن أكثر من اثنين في كل عام يعني هذا أنه عليّ أن انتظر ثلاثة أعوام بطولها.. والشباب في هذه الأيام (وضحكت في سرّها) لا يقبلون إلا على الفتاة الموظفّة.. يا رافع السماوات وباسط الأرض.. لا وظيفة ولا زواج! ابن خالي شاب جامعي في الثلاثين يملأ السمع والبصر.. لماذا لم يتوجه بنظراته نحوي؟ يبدو أنه ينوي الزواج من ابنة ثري.. ثري كخالي، كأبيه، لنا اللّه، وليس لنا إِلاّ الانتظار.. يقولون (حقوق المرأة) وهل يطالب بحقوق من لم يحصل على حق العيش، سيد الحقوق؟!».

ونظرت بطرف عينها إِلى الشاب الطبيب: «ابن السكيرة هذا.. زوج مناسب، سناً ومنظراً، ولكن من يدري لعله عاطل عن العمل مثلي، لعله آت إِلى العقبة يبحث عن عمل! من سوء حظّي أن فرص العمل في العقبة متوفرة نوعاً ما للرجال ولكنها غير متوفرة للنساء... الميناء مجال حيوي، ولكنه حكر على الرجال.. معهم حق وماذا تعمل النساء في الميناء الذي يحتاج إِلى سواعد الرجال.

ظلّ كل من الركاب الخمسة يحاور نفسه.. ولم يقطع جوّ الصمت إِلاّ صوت السائق يقول: «الحمد للّه على السلامة» وقد وصلت السيارة إِلى مكتب «التكسيات» في العقبة.

نزل الركاب الخمسة من السيارة ومضى كل منهم إِلى وجهته ولم ينبس بكلمة.. والسائق لم يسمع، رغم انتباهه، على عباردته، رداً من أحمد..!؟

مشروع زواج

« نقرت على الباب بأنامل كأنها صنعت من عاج » اتسعت عينا المدير – أيوب – انتصب واقفاً، ابتسمت ملامحه. أشار بيده وقال لها تفضلي.. سلمت وناولته النماذج.

– تفضلي اجلسي.

– شكراً، أريد توقيعك على النماذج، ثم علي أن أتابع المعاملة لعلها تنتهي في يوم أو يومين.

– مارأيك أن نتولى هذه المهمة عنك، وسيكون الجواز في يدك خلال ساعة.

– إِذن تفضلي، اجلسي.

استدعى المدير المراسل وأعطاه المعاملة وطلب منه أن يجتهد في إِنجازها... « هذه هي مطلوبي » لقد انتظرتها لأربعين عاماً... » عينان زرقاوان كأنهما خلاصة من ماء البحر، أو كأنهما عينا حبيبة ذي الرمة، الشاعر الأموي الذي قال فيهما:

وعينانِ – قال اللّه: كونا فكانتا –

فعولانِ بالألبابِ ما تفعل الخمرُ

وأسنان مفلجة كأنما مرت عليه إبرة طبيب فنان، لا . . ليس هذا تفليجاً طبيعياً، إنما هو صنعة طبيب ماهر، وشعر أشقر كأنما فتل من سبائك الذهب الخالص . . إنه ليخيل للناظر أنها شمعة مضاءة . . قال لها وهو يبتسم :

– شاياً أم قهوة؟

– افترّ ثغرها عن ابتسامة عريضة فبدت أسنانها المفلجة :

– شاياً ثم قهوة .

قهقة أيوب ليداري ارتباكه، ثم استدعى الآذن وطلب من أن يحضر كأسين من الشاي أما جوابها فقد أشعره أنها جريئة، فقال في نفسه : (هذا يسهل المهمة عليّ) .

– يا ست سعاد، هل تسميحن لي بسؤال؟ .

– تفضل .

– رسلان اسم الوالد ؟ .

– نعم . .

– اذن . . فأنت آنسة !

– بل سيدة !

– كيف؟ لماذا لم تكتبي في النموذج اسم الزوج؟

– تزوجت وطلقت !

– لماذا أقصد أنك بليت برجل لم يقدرك حق قدرك .

– بل برجلين .

ابتسم، ولكنه لم يفهم ما تقصده، فنظر إليها متسائلاً...

– تزوجت من رجل صاحب تجارة كبيرة، ولكنه لم يفهمني، فوقع الطلاق بعد سنة.. ثم قلت: أغير النوعية.. فتزوجت من شاعر، ولكني وجدت أن التفاهم معه كان مستحيلاً، فوقع الطلاق بعد ستة أشهر.

– كنت أعتقد أن الذي يحظى بهذه الجوهرة لا يفرط فيها.

– الغريب أنني لم أصادف أحداً يفهمني، ذنبي أن اللّه أعطاني عقلاً حكيماً، والناس، ومنهم الأزواج.. يريدون أن يفرضوا عليّ آراء فاسدة، وأنواعاً من السلوك شاذة.

قال وهو يضم أصابع يده اليمنى ثم يفتحها:

– ما رأيك برجل يحاول أن يفهمك!

نظرت إليه ثم أغضت وطيف ابتسامة ينتشر على ملامحها شجعه ذلك منها فأردف:

– أريد أن نلتقي لقاءً مطولاً نحاول أن نتفاهم فيه، وأرجو أن ينتهي ذلك إلى أن «يُؤْدَمَ» بيننا، وأتبع ذلك بنظرة متفحصة.

نظرت هي إليه وقد زوت ما بين عينها وقالت:

– وهل تختلف عن غيرك، كلكم يدعي، ولكن كلكم يتمسك برأيه لا حَظَ لأول مرة، أن خشونة صوتها لا تتناسب مع جمالها ثم قال:

– على كل حال... جربي هذه المرة.

اتفقا أن يلتقيا يوم الاثنين الساعة الرابعة، أمام باب مكتبة الجامعة.. ثم أخذت الجواز وودعت..

الساعة الرابعة إلا ربعاً كان في انتظارها «فما يليق أن تسبقني، يجب أن أكون في الاستقبال».. لم تصل هي إلا الرابعة والنصف.. سلمت ثم تساءلت:

– متى وصلت؟

– الرابعة إلا ربعاً..

قالت ساخرة

– يبدو أنك تحترم الوقت.

جفل من تعليقها، ولكنه رأى أن يوضح نفسه:

– لقد أردت أن أكون في الاستقبال، فما يليق أن تسبقيني..

لم تتكلم وإنما هزت رأسها، دلالة عدم الاقتناع.. سارا جنباً إلى جنب، نحو مقعد في حديقة الجامعة، لاحظ أنها أطول منه قليلاً.. «لا يهم، سأعرض عليها أن تلبس حذاء قصير الكعب، على كل حال الفرق ليس كبيراً، هي أطول وأنا أعرض..». نظرت إليه بعد أن جلسا، منتظرة منه أن يبدأ، ولمّا طال الصمت قالت:

هاتِ ما عندك.

قال وهو يحدق في عينيها الزوقاوين وأهدابها الطويلة:

– نحن إن شاء اللّه، ننطلق في حياتنا من الإسلام، القرآن والسنة النبوية والاجتهادات المقبولة هي الحَكَمُ فيما نأتي وما ندع..

– الإِسلام ليس لك وحدك، وإِنما هو دين عامة الناس.

– ماذا تعني؟

– هل تعتقد أني ملحدة لتذكرني بالإِسلام؟

– لا.. أريد أن نتفق على – مسلمات – ثم نبني عليها..

– أأنت شاعر؟

– لا، لكن لماذا هذه الملاحظة..

– زوجي الثاني الشاعر.. كان يتفلسف مثلك!

امتعض من تعليقها، ولكنه رأى من الحكمة ألا يرد عليها حتى لا تمتلئ الطريق بالأشواك، قبل المرور بها.. صمت لحظة، متجاهلاً تعليقها ثم قال، وقد غابت عن وجهه الابتسامة:

– بما أننا ننطلق من الإِسلام فلا بد من مراعاة الحشمة في اللباس..

– اللباس.. شيء راجع إِلى الذوق لا إِلى الدين..

– لكن الإِسلام لا يرضى للمرأة أن تخرج غير محتشمة...

– ماذا تعني بالحشمة؟

– أن ينفي عن لباس المرأة المسلمة ثلاث صفات، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

– ألا يشف. ولا يصف ولا يكشف..

أحست برغبة في السخرية فقالت:

– أما تكفيك قيود اللباس التي تفرضها على المرأة؟

– ماذا تعنين؟

– لقد أضفت قيوداً لفظية إلى جانب قيود اللباس.

– وما هي؟

– لا حظت أنك أوردت ثلاث كلمات في آخر كل كلمة «فاء» فلم تكتف بالرغبة في استعباد المرأة، بل أنك ترغب في استعباد الألفاظ، عن طريق السجع..

استاء من سخريتها وهو جاد غاية الجد.. حَدّق فيها وهو يقول:

– وهل مطالب الشرع استعباد؟

قالت وقد اكفهر وجهها فبدا كالغيمة المنذرة بالمطر يلمع من خلالها البرق:

– هذه مطالبكم أيها الرجال، وليست مطالب الشرع.

– وكيف تفسرين قوله تعالى: « يا أَيُّها النَبِيُّ قُل لأَزوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤمنينَ يُدْنِينَ عَلَيّهِنَ مِن جَلابِيبِهِنَ »؟.

– وهل تعد نَفَسَكَ مؤمناً؟

– ولماذا لا أعد نفسي مؤمناً..؟

– المؤمن لا يجالس النساء في مكتبه ويكلف المراسلين العاملين في دائرته بإنجاز ما كان يجب أن يقمن هن بإنجازه!

تقصدين أنني استبقيتك عندي، وكلفت المراسل بإنجاز معاملتك؟

– وأنا واحدة من عشرات، تفعل لهن ذلك!٧

– أبداً.. أنا لا أفعل ذلك مع كل مراجعة، ولكنني أعجبت بك ومنيت نفسي أن أتزوج منك إن كنت غير مرتبطة، وما كان بإمكاني

أن أعرف ذلك بغير استقبالك عندي، لقد كان هدفي شريفاً.

قالت وقد بدا الغضب عل وجهها:

- أنتم الرجال لا تَصّدُقون.. وأنا مقتنعة بهذا اللباس العصري الذي ألبس..

وتألم لهذا الجواب.. ولم يجد خيراً من الصمت.. أشاحت بوجهها وأخذت تنظر إلى الجهة الأخرى.. نظر هو بين قدميه ثم رفع رأسه فرأى فتاة تلبس بنطالا ضيقاً تتكسر في مشيتها.. تذكر أنه في الأربعين، وأن - نجاة - زميلته أيام الدراسة الجامعية فضلت عليه رجل أعمال يمتلك سيارة فارهة وقصراً فخماً ومتجراً يربح كل شهر حوالي أربعة آلاف دينا.. قرر أن يكف عن الحوار في هذا الموضوع، وأن يحاورها في موضوع آخر.. لعلها تتقبل الحوار فيه، وهو موضوع رئيسي لا تتجاوز عنه أبداً..

انتظر التفاته منها نحوه، ابتسم في وجهها، وأشار عليها أن يذهبا إلى مقصف الجامعة ليشربا شيئاً يبرد أعصابهما الحارة.. فكرت أن تعتذر ولكنها عدلت عن ذلك، وظلت صامته.. نهض وانتظرها حتى نهضت.. في المقصف.. طلب فنجاني قهوة، حَسَتْ حَسْوة دون أن تتكلم، وخطر ببالها الماضي.. لعنت في سرها زوجها الأول الذي كان ينعتها بأنها عنيدة، لا ترى صواباً إلا في الأفكار التي تنبت في دماغها.. (كلاب، حمقى، ومع ذلك يحكمون على الناس، يحكمون على من يزن عقلها الجبال

الرواسي، ألا . . . أين الرجل الذي يقــدر هذا العــقل المملوء حكمة! . .)

قال أيوب :

– لننتقل يا مدام سعاد إِلى موضوع آخر، فهذا الموضوع إِنساني أخلاقي عاطفي . .

– نظرت إِليه مستفرة بعينيها دون أن تكلم .

قال وهو يصوب بصره إِلى جدار المقصف :

– أمي . .

ولم تقل شيئاً، فأكمل . .

– أمي في الثمانين من عمرها، وهي سيدة وديعة، لا تتدخل في شؤوننا، فإِذا كُتِبَ بيننا كانت في رعايتنا . .

نظرت إِليه مقطبة الجبين، وقالت بحزم :

– لا يجمعني وامرأة أخرى سقف بيت واحد .

– لكنها أمي وليست ضرة لك!

– حتى لو كانت جدتك، فلا يؤمن الشر من واحده من بنات حواء!

وكيف أقابل الناس إِذا لم أضم أمي العجوز إِلى رعايتي؟

– يجب أن تهمك زوجتك – إِن كنت صادقاً – ولا يهمك الناس .

– وماذا أقول لربي الذي قرن بين عبادتنا له وإِحساننا للأبوين؟

– لماذا لا تتذكر ربنا إِلا في هذا الجانب؟

– أنا أتذكره في كل الجوانب . . تأكدي . .

– إِدعاء كان يقول مثل ذلك الشاعر الملعون..

أحس أن خطوط الاتصال بينه وبينها «جميلة.. بل ذات جماع بارع، ولكنها مغلقة على أفكارها، عدوانية، معاكسة... لا يعرف التفاهم إِلى نفسها سبيلاً.. وهل أريد شيطانة في جسد ملاك؟ لا... امرأة عادية، رضية النفس، تتوق إِلى التفاهم والحياة المطمئنة خير من هذه المرأة ذات الجماع البارع الذي يخفي خلفه مخالب وأنياباً، لا لن أتخلى عن أمي، ولن أتخلى عن تطبيق الإِسلام حتى في اللباس» قرر أن يكون صريحاً حازما معها.. كانت مطرقة مكفهرة الوجه... رفع صوته ليسمعها حتى التفت الذين يجلسون قربهما:

– يبدو أنك عنيدة.. أنانية..

– انتفضت وقالت وهي تضع حقيبتها في كتفها:

– آه منكم جميعاً أيها الرجال تباً لكم جميعاً.. تصرون على أفكاركم وتتهمون المرأة.. ثم انتفضت واقفة، ومضت وهي تبربر بكلمات غير مفهومة.. تابعها بنظره. اصطدم كتفها في الباب وهي خارجة، وأشار بيده نحوها وقال بصوت مسموع كأنه يخرج من شق صخرة:

– إِلى حيثُ ألقت..

عودة المغترب

أدهشه منظر عمّان من الجوّ غادرها قبل خمسة عشر عاماً وهي مدينة مكتنزة على تلالها السبعة، ويعود إِليها الآن وقد ترامت أطرافها فسبحت على الحقول المجاورة وصعدت سفوح التلال وتربعت على قممها. من الغرب ارتبطت بمدينة صويلح ومن الشرق زحفت في الصحراء، ومن الشمال خالطت مدينة الرصيفة، ومن الجنوب اقتحمت حمى قرية الطيبة..

ولاح له المطار.. بناء ضخم ينهض على طرف الصحراء كأنه قلعة في تلك الصحراء لصد غارات الأعداء من المدن والقرى.

قال له جارة في الكرسي في الطائرة.

– هذا هو المطار.

– أجابه منكراً:

– المطار لم يكن في هذه الجهة، ولم يكن بهذه الضخامة.

أجابه جارة وهو يبتسم:

– هذا المطار الجديد، المطار القديم أصبح مخصصاً لرحلات العسكرية وبعض المهمات الخاصة.

قال كالمعتذر:

- نسيت.. لقد كتبت لي زوجتي قبل عشر سنوات تخبرني - مما تخبرني - أن مطاراً ضخماً حديثاً قد بني في جنوب عمّان.

- حطت الطائرة، أجريت معاملات ختم الجوازات بسرعة، خرج القادمون إلى الصالة.. أخذ سعيد يمدّ بصره يترقب أسرته.. بعد تردد أقلت عليه سيدة في الخامسة والأربعين، حدّق فيها عرفها وأنكرها.. هي زوجته أم «جديد» لكنها تغيرت، جبينها بدا مخططاً بخطوط جلدية خفيفة، عيناها خَفَتَ بريقهما، خلف الحن؛ تَغَضُّنٌ يفصل بينه وبين مسيل الخد.. (لشد ما تغيّرت يا أمّ جديد)..

سلمت عليه بكنيته:

- كيف حالك يا أبا جديد.

- كيف حالك يا أم جديد؟ الحمد للّه الذي جمع بيننا بعد طول فراق.

ابتسمت فبدت حزوز على أطراف فمها، وقالت وهي تغض من بصرها:

- يستأهل اللّه الحمد:

وتقدم بعدها إليه شاب فارع الطول ذو لحية مستديرة.. تحيط بوجه كأنه صفحة بيضاء، قالت أم جديد:

- هذا جديد يا أبا جديد..

صافحه، انحنى الشاب عليه عندما همّ يتبادل القبلات مع

أبيه (ما شاء اللّه.. هذا جديد الذي تركته طفلاً في العاشرة، ها هو رجل مِلءُ السمع والبصر، أطول مني، أشد بياضاً، يبدو أنه ملتزم بالإسلام.. مثلي)

وتقدمت بعد فتاة ربعة شقراء قد غطت شعرها بخمار منقط يغلب على ألوانه اللون الأخضر كأنها أم جديد عندما خطبها قبل خمسة وعشرين عاماً، غير أنها أكثر صقلاً من أم جديد.

قالت أم جديد:

– ابنتك سناء.

سرّ بها، صافحها، وضعت يدها على رقبته، وقبلته بلهفة على وجنتيه وعلى الجبين... لشدّ ما تمنيت يا أبي أن تكون إلى جانبي وأنا في الجامعة، كنت أحتاج إلى علمك في الفيزياء، وهي المادة التي درستها – أنا – كما درستها أنت..

ابتسم، وأشار بيده وقال:

« تجري الرياح بما لا تشتهي السفن »...

بل بما لا تشتهي الأقمار.. مثلك..

وكانت تقف خلف سناء فتاة برونزية اللون، تلبس خماراً بنياً، تفرع سناء طولاً... قدمتها الأم فقالت:

– ابنتك سوسن، في السنة الأولى في الجامعة.

صافحته سوسن، ولاحظ وهي تقبل وجنته أنها تطاوله بل هي أطول منه قليلاً.. التّفَتِ الأسرة حول الوالد، أما هو فقد أدار

عينيه.. هنا وهناك فترقرقت في عينه دمعتان، سرعان ما جففهما.. نظرت الأم إليه فأخذت الدموع تنهمر من عيْنيها.. أحاط بها الأولاد عذلوها على بكائها في هذه الحالة..

– أهكذا نستقبل أبانا يا أماه؟

احتاجت الأم إلى دقيقتين حتى أفرغت شحنة الحزن في نفسها.. قال لها الولد:

– كيف صحتك؟

قالت وهي تغمض عينيها تحاشياً لأن تلتقي عيناها بعينيه:

– لا بأس، أصبح شاباً، في السابعة عشرة، كما تعرف، لقد سافرت وعمره سنتان، ولكن ضاوي الأطراف..

– ومن يعتني به؟

– كنا جميعاً؟ نعتني به، ولكن عندما بلغ الرابعة عشرة، وأصبح شاباً.. لم يعد من اللائق أن تتابع خدمته أختاه..

– هذا صحيح..

قال جديد:

– الحمد للّه يا أبي على كل حال لعلّ قد أتى بأخي بلال مشلولاً ليحط به من ذنوبنا، إن خدمة من يحتاجون إلى خدمة يكتب به للمرء حسنات ، وتحط عنه سيّئات... لا تيأس يا أبي، الحمد للّه،. سَرِّ عنك يا أبي..

في الطريق، بعد اليادودة إلى صويلح حيث تقيم الأسرة..

اندهش الأب من مناظر الدارات والقصور التي تنهض على جانبي الطريق، وعلّق:

– تغير الأردن في هذه السنونِ التي غبت فيها.. تدفقت الأموال في فترة الطفرة، ما بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٣... فأقام الناس الدارات والقصور.. أما كان يمكن للحكومة أن تضع سقفاً للحد الأعلى للمبلغ الذي يقام به السكن، حتى تتوفر الأموال للمشاريع العامة، لكي يُقضي على البطالة؟

نظر خالد إلى أبيه من زاوية عينه اليمنى وهو يقود السيارة، وعلقّ: للأسف، الحكومات المتعاقبة أخذت بالنظام الرأسمالي الغربي، فقاد إلى الهلاك..

وعلقّت سناء:

– في الغرب، وإن أطلقوا العنان لرأس المال، غير أنه حفظوا حقوق العمّال، لا كما في بلدنا...

وعّلقت الأم:

– في الحقيقة لا خلاص لبلدان العالم الثالث إلا باتباع النظام الاقتصادي الإسلامي، النظام التكافلي.. وعاد الأب يقول:

– بل لا خلاص للعالم كله، مما يتردّى فيه من ويلات، إلا بالإسلام.

وطُول الطريق جعل الأب يسأل الأسرة عن أحوال الجيران والأصدقاء وهم يجيبون حتى سأل عن جارهم أبي سليم فوجم

الجميع، كانوا يعرفون أنه صديق عزيز عليه.. نظر إِليهم:

لِمَ لا تتكلمون...

واستمر الصمت:

قال الأب:

– أمات؟ فهم من هذا الصمت أنه مات.. أنغض الجميع برؤوسهم دلالة الموافقة.

– وكيف مات، كان كالحديد!

– أصابه مرض خبيث لم يمهله إِلا ثلاثة أشهر.

في الدار.. أخذ الأب يقارن بين صورة العائلة المعلقة على الجدار التي التقطت قبل سفره بأسبوع، وبين ما أصبحت عليه الآن... (الأولاد كانوا أطفالا، فأصبحوا ناضجين وأم جديد كانت في عز الشباب فأصبحت أقرب إِلى الشيخوخة منها إِلى الشاب.. وأنا.. اتغيرت؟ نعم تغيرت ولكن قليلاً) وأحسّ أن نفسه تغص بشعورين متباعدين" هو سعيد مسرور لأن ابناءه قد أصبحو شباباً ولكنه مغمور بالأسى لأن الأيام تحمل في طياتها التغير ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجهَهُ ﴾ ... أما كبرت أم جديد أما مات أبو سليم الذي كان كالحديد؟ أما كبرت عمّان وتمددّت حتى سالت على الحقول والتلال المجاورة.. بل أما أصبح المشرق العربي يجثم على حافّة بركان؟ أمريكا بأساطيلها، ومعها دول كثيرة تهدّد العراق، والعراق بعد اعتدائه على الكويت ينذر بأنه

سيحرق آبار النفط إِذا ضربته أمريكا . . . ؟

المنطقة بأسرها . . الجزيرة العربية، العراق، سورية، لبنان، إِسرائيل، أصبحت مهددّه بالدمار الشامل . . . وقد كانت قبل شهر هادئة وادعه . ! الله كيف يغيّر الزمن الناس والأشياء والأحداث ! !

خيبة أمل

النظام الشيوعي.. نظام لا يتمشى مع طبيعة النفس البشرية، لأنه يجعل الحكم لطبقة دون سائر الطبقات، هي طبقة العمال، ولأنه يحرم الإنسان من الملكية الخاصة، وهي نزعة طبيعية في النفس البشرية، ولأنه يلغي الأديان التي تغذي الجانب الروحي في الإنسان، ولأنه يرى أن التاريخ يسيير «بحتمية» لا يعدوها، مع أن التاريخ تؤثر في سيرة قوى اجتماعية واقتصادية وروحية وبشرية.. لا تجعله في صعود واضح دائماً..

لهذا.. انهارت الشيوعيّة في الدول الأوروبيّة الشرقية ثم انهارت في روسيا نفسها، أو هي في طريقها إلى الانهيار..

أما في الصين.. فهي ما تزال قائمة.. وقد سمعت من أحد الصينيين الحكاية التالية:

إحدى الشركات الصينية التي تتعامل بالألبان، وفيها ثلاثة آلاف عامل.. قررت أن تجرب الديمقراطية في تعيين مدير الشركة ومساعديّة.. فلا يقوم مجلس الإدارة بتعيينهم.. وإنما تَجْعل العاملين من إداريين ومهندسين وعمال فنيين وعمال عاديين..

يختارون المدير والمساعدين من بينهم عن طريق الانتخابات.

ستون شخصاً رشحوا أنفسهم لهذه المراكز الثلاثة.. والغريب أن دعاية كل واحد تتشابه إلى حدّ كبير مع دعاية الآخرين.. كل منهم كان يزعم أنه إن نجح – مديراً – أو مساعداً للمدير.. سيكون الشخص المدافع عن مصالح العمال أمام مجلس الإدارة... سيطالب بزيادة الأجور وتقليل ساعات العمل، وبضمانات للعامل، إذا أصابه مكروه.. وإلى جانب هذه المطالب العامّة.. استقل كل بضعة أشخاص بوعد خاص، كل فرد يقدمه دون ارتباط مع الآخرين.. إلا ما ندر، بعضهم يعد بتحسين أوضاع العيادات، بعضهم يعد بتحسين نوعية الكتب في المكتبات، وبعضهم يعد بتحسين نوعية الغذاء... بل تَطَرق بعضهم ووعد بأنه سينشئ مكتباً – للزواج – يعرض فيه الشاب أو الفتاة رغبته في الزواج والمواصفات التي يريدها في الجنس الآخر، ثم يقوم المكتب بالتوفيق بين المتجانسين تبعاً لرغباتهم، بل تطرقت جماعة تكون كتلة بأنها ستعمل على فتح ناد ليلي يستجيب لطلبات العمال جميعاً ويقدم لهم غذاءِ روحياً عالياً...

لم تطل مدّة الدعاية.. كانت أسبوعاً واحداً، نظراً لسهولة الوصول إلى تجمعات العمال.. ثم تم الانتخاب ففاز ثلاثة طبعاً، وهم الذين أخذوا أكثر الأصوات، الفائز الأول في الخمسين، والفائز الثاني في الخامسة والأربعين، والفائز الثالث في الثلاثين..

تسلم الثلاثة مراكزهم.. وأحس العاملون في الشركة بنشوة كبيرة فلأول مرة يدير شؤونهم أناس منهم ينتخبوهم انتخاباً، ويعلقون عليهم آمالاً كبيرة.. فقد تصبح هذه الشركة أسعد الشركات حظاً في الصين كلها، وقد تتبعها شركات أخرى عندما ترى النتائج الباهرة التي تتحقق بفضل الديمقراطية.

بعد مضي شهر.. بدأ كل من المسؤولين الثلاثة يفكر تفكيراً مغايراً عما كان عليه عندما رشح نفسه لتولي المسؤولية.. أخذ كل من الثلاثة يقول في نفسه: إذا مضيت أدافع عن مصالح العاملين أمام مجلس الإدارة.. فإن المجلس لن يتعاون معي.. لن يتعجل في تقرير زيادة لي، بل لعله يعزف عن فكرة الزيادة نهائياً، ولن يضمني إلى عضويته، باعتباري على اطلاع كاف على شؤون الشركة.. والعضوية ذات قيمة مادية ومعنويّة.. ماذا يفعل لي العاملون إذا حملت السلم في العرض، ومضيت أدافع عن حقوقهم، وأحاول الوفاء بما وعدتهم به؟.. لا شيء لا شيء.. لكن التعاون مع مجلس الإدارة فيه أشياء وأشياء..

بدأ الثلاثة.. كل على انفراد يطلق من التصريحات والأقوال ما يدل على أنه يؤيد مجلس الإدارة في كل ما يقول ويفعل، وتتابع ذلك من كلّ منهم... فأصبحوا يتبارون بالتقرب من مجلس الإدارة في القول والعمل..

في مطلع الشهر الآخر.. قرر مجلس الإدارة ضم اثنين إلى

عضويته.. المدير وأحد المساعدين...

دَهِشَ العاملون لذلك.. وأحسوا بأن المدير ومساعديه نقضا العهد الذي قطعاه على نفسيهما... وان الكسوف على الوجوه، ثم تبعه شعور أن هذا العهد الحالي ليس خيراً من العهد السابق إِن لم يكن أسوأ.. على الأقل من الناحية الأخلاقية..

وماتت التجربة في مهدها بعد أن كان يؤمل لها أن تعم جميع الشركات في الصين على كثرتها وضخامة حجمها.. وبذلك.. خسرت البشرية فلو نجحت التجربة لكان يمكن أن تعدل الصين عن الاشتراكية كما عدلت عنها روسيا.

الحسناء

كان الجوّ ماطراً.. أحس بالدفء عندما دخل المكتبة.. مكث دقائق يستمتع بالدفء قبل أن ينهض إلى رف الكتب.. تناول كتاباً في الفلسفة الإسلامية تقارن بين الغزالي وابن رشد..

فوجىء بها تخطو خطواتها الأخيرة... لتجلس قبالة مجلسه على الطاولة نفسها.. لم يَرَ أجمل منها قَواماً.. خطر بباله بيت كعب بن زهير:

هيفاءُ مُثقلةً، عجزاءُ مُدبرةٌ　　　لا يُشْتكى قِصَرٌ ولا طُولُ

«أهي هبة السماء إلى؟ ماالذي جعلها تختار هذا هذا المقعد؟ أهو القدر ساقها للجلوس... قبالتي؟ إنني أريد عروساً للمستقبل، بارعة الجمال.. وها هي ذي تأتي على قدميها لتجلس قبالتي..!». لكنها لم تعره اهتماماً.. لم تنظر إليه، بل بدأت تنظر في مذكرات بين يديها وانهكمت في النظر فيها.. تذكر قول إبراهيم طوقان:

وغريرةٍ في المكتبة　　　بجمالها مُتنقبة
أبصرتُها عند الصباحِ الـ　　　غضُّ تشبهُ كوكَبَهْ

أحس بشعور مناقض يتصارع في نفسه.. لم تنظر إليه مما أدى إلى انسحاب مشاعره، ولكن جمالها الأخاذ كان يجذبه نحوها، بَيْدَ أنه لم يجد من الشجاعة ما يحفزه على محادثتها، عامان على الأقل... إن المرء يتشجع على محادثة فتاة عندما يكون على وشك الخطبة، ولا يؤخرها إلا وجود الفتاة المناسبة.. المحادثة عندئذ.. مبررّة.

لكنه.. كان يرفع عينيه عن الكتاب، بين حين وآخر، ويحدق فيها.. «ياللّه كيف يودع الحق سره في خلقه!.. لِمَ جلستِ قبالتي.. ولم تنظري إليّ.. أأنت.. على وعي بهذا الجمال البارع وتريدن أن تحرقي به قلوب العباد؟... لِمَ لَمْ تأخذي بنصيحة أحمد شوقي:

صُوني جمالَكِ عنَّا إننا بَشَرٌ   مِنَ التُّرابِ، وهذا الحسنُ روحاني

ترفعي أيتها الفتاة عن أن تدخلي المكتبة وأن تجلسي أمام عيني.. أمثالي من البشر.. صوني هذا الجمال الروحاني... لا تظهريه إلى... البشر.. إنك خلقت من مادة أخرى غير مادة البشر... مادة شفيفة.. إذا تسلط شعاعها على قلب عبد من عباد اللّه.. أحرقه كما تحرق النار الفراشة.. أأنت – وحيد – المغنية التي وصفها ابن الرومي بقوله:

ليتَ شِعْري إذا أدامَ إليها   كرَّةَ الطَّرفِ مُبْدئٌ وَمُعيدُ
أَهِيَ شَيءٌ لا تسأمُ العيْنُ مِنْهُ   أمْ لها كلَّ ساعةٍ تجديدُ

أأنت وحيد في ثوب جديد، في ثوب طالبة جامعية تنظر في مذاكرت بين يدها؟... ثم عاد ينظر في الكتاب: « .. أن تقول: التفلسف في الإسلام.. أصح من أن تقول: الفلسفة الإسلامية. وعله: يحسن أن تقول: متفلسفة الإسلام، وليس فلاسفة الإسلام.. لماذا؟ لأن الفلسفة تدعي لنفسها القدرة على تفسير الحياة، في حين أن الدين هو التفسير الحقيقي للحياة وما بعد الحياة، فكأن الفلسفة منافس للدين، تحاول أن تحل مكانه. ومتفلسفة الإسلام لم يقطعوا صلتهم بالدين بل حاولو أن يوفقوا بين الدين والفلسفة، وهذا يعني أنهم أخذوا من الفلسفة منهجها ولم يأخذوا نظرتها للحياة، فهم متفلسفة وليسوا فلاسفة. وهذا لا يقلل من شأنهم، لأن القيمة هي في عمق التفكير وليس في اتجاهه، والإسلام حث على عمق التفكير، وقرر أن العقيدة – وهي أساس الدين – لا تستقر في النفس إلا بالدليل والبرهان العقلي».

تقدم أحد قيمي المكتبة ففتح الشباك، اندفعت منه إلى داخل القاعة ذبابة.. طوفت في أرجاء القاعة ثم اتجهت نحو تلك الحسناء، وعندما أوشكت أن تحط على وجهها.. ذبّتها بيدها.. فطارت الذبابة ثم طوفت في أرجاء القاعة ثم عادت لتحط عليها، ولكنها ذبْتها قبل أن تحط على وجهها ذي الحسن الرائع الذي يصدق فيه قول الشاعر:

ترى العيْنُ ما تهوى وفيها زيادةٌ

من اليُمْنِ، إذْ تبدو، وملهىٌ لِمَلْعَبِ

رفع الطالب عينية عن الكتاب وأخذ يتابع المشهد « . . أيتها الحسناء . . حتى الذبابة تدرك جمالك الرائع، ولذلك فهي تُطَوّف في القاعة كلها ثم تعود إِليك دون غيرك . . لكأنها تحمل بين جوانجها مرآة مصقولة تدرك الجمال وتتذوقه . . ليت بعض بني البشر يملكون مثل هذه المرآة، أولئك الذين يظنون أن البياض يساوي الجمال . . في حين أن ذلك أبعد ما يكون عن الصواب » .

وعادت الذبابة للمرة الثالثة ولكن الحسناء تنبهت لها وذبتها قبل أن تحط على وجهها . . بعدئذٍ . . قامت الذبابة بحركات غريبة : أخذت تصعد حتى تكاد تلامس السقف ثم تنحط مسرعة، حتى إِذا أصبحت على بعد ذراع من رأس الحسناء . . ارتفعت مرة أخرى وقد كررت هذه الحركة، والطالب يلاحظها بطرف عينيه، عشر مرات . . ثم انحطت كالسهم في المرة الحادية عشرة فوقعت على جبين الحسناء قبل أن تتمكن من ذبها، ولكن سرعان ما ذبتها وانطلقت في خط مستقيم حتى خرجت من النافذة كما دخلت، وكر الطالب بنظره إِلى وجه الحسناء . . فرأى نقطة سوداء حيث وقعت الذبابة من جبينها، فانقبضت نفسه، وأوشك أن ينبهها إِلى ما تركته الذبابة على جبينها . . ولكنه أمسك في اللحظة الأخيرة، ورجع بجذعه إِلى الخلف، ثم انكب

ينظر في الكتاب.. «في اعتقادي أن الغزالي كان أصحّ نظرة من ابن رشد.. لأن ابن رشد قدّم قوّة العقل على كل قوّة أخرى في الإنسان، بل قدّم العقل على نصوص الدين، وذلك خلط لأن العقل إحدى قوى الإنسان الأربعة: العقل والروح والعاطفة والجسد، والخير في المواءمة بينها وليس في تغليب إحداها، لأن الإنسان لا يحيا بالعقل وحده. أما الغزالي فقد نظر إلى الإنسان بهذه النظرة الشمولية، ولذلك.. جعل نصوص الدين الصحيحة مقدّمة على العقل.. العقل يعمل في ظلها.. فهماً لها وتفسيراً..» ثم ألقى نظرة على الحسناء فلمح وجهها الملائكي ولمح تلك النقطة السوداء التي تركتها الذبابة... ولا يدري لماذا خطر بباله في تلك اللحظة قول الرسول الكريم: «لو كانتِ الدُّنيا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّه جناحَ بَعُوضَةٍ، ما سقى الكافِرَ منها شَرْبَةَ ماءٍ...»، ولكنه يعي تماماً لماذا مرّ بخاطره قول الحق تعالى: « يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجتَمَعُوا لَهُ وإِن يَسْلُبْهُمٍ الذُّبَابُ شَيئَاً لا يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ صدق الله العظيم.

لم يعد يطيق الجلوس والقراءة، فأطبق الكتاب.. ثم ألقى عليها نظرة عامة وأخذ يضيق منها حتى لم يعد يرى إلا النُّدبة السوداء التي تركتها الذبابة على جبينها وخرج يتخبط إلى غير ما هدف..

جاهلية العم فنخير

من أول وهلة.. بدا لهم كأنه الإنسان الأول، بعد أن اندثر دين آدم ●، وأصبح الإنسان متوحشاً، يعيش على الأوهام والخرافات والأساطير.. كان عاري الرأس، قد تساقط عنه الشعر، ولم يبق إلا قُزَعٌ وراء الأذنين، وفوق الرقبة، ولحيته بيضاء خفيفة شعرها طويل متشعث، وما بقي من وجهه، بعد اللحية التي لا يشذبها، تملأه التجاعيد العميقة، في الجبهة وفي الوجنتين والخدين، وحول الفم حتى أصابت التجاعيد حدود الأنف. يجلس على حشية من خيش، ويتوسد حشية أخرى، وإلى جانبه بطانية يتغطى بها عندما يحس بالبرد، وليس في عريش الخيش البالي، إلى جانب هذه الأوعية، إلا إبريق شاي قديم، وكوب ماء صدئ، وصحن علته طبقات من الأوساخ.. وأمام العريش أربعة شياه، تسرح وتعود وحدها، فقد ألفت المكان، فهي تسرح منه وتروح إليه.

إنه شيخ في التسعين من عمره.. أحس الوعاظ الثلاثة الذين

يجوبون منطقة «الرويشد» الصحراوية لوعظ الناس هناك وتعليمهم شيئاً من أمور الدين – أحسوا بوحشة تجاه هذا المشهد.. ومع ذلك، سلموا عليه فرد عليهم السلام دون أن يتحرك من مكانه، بل دون أن يدعوهم للجلوس.. ولكن هدفهم فرض عليهم أن يجلسوا بعد أن استأذنوه:

– أتأذن لنا يا عم بالجلوس، قال ذلك أميرهم، وهو يشير بيده تعبيراً عن المقصود، لأنه قدر أن العجوز لن يفهم عليه بسهولة.. لم يتكلم العجوز، وإنما أشار بيده لهم: أن اجلسوا جلسوا على التراب، لم يعرض عليهم شيئاً من الزاد أو الشاي مثلاً، وإنما اعتدل في جلسته مطرقاً.

قال أمير الجماعة.

– منذ متى تعيش هنا يا عم في هذه الخيمة البعيدة عن خيام البدو؟ واستعان بحركات يديه ليفهم العجوز مراده.

رفع عينيه إليه ثم أشار بيديه وقال بلهجته البدوية التي لا تكاد تفهم لابن الحاضرة:

– منذ كنت شاباً في الأربعين.

– أليس لك زوجة وأولاد؟

– وأشار بيده لا.

– ولماذا تعيش وحدك؟

– قال كلمات فهم منها أمير الجماعة أنه أَلِفَ الوحدة وارتاح لها.

وأراد أمير الجماعة أن يدخل في الموضوع المهم:

– اتصلي يا عم؟

وبدا أنه لم يفهم مقصوده، فهز رأسه مستفسراً..

فمثل له أمير الجماعة بعض حركات الصلاة، ولكن العجوز لم يفهم المقصود بهذه الحركات، فأشعره بكلمات متقطعة وبإشارة من يديه أنه لم يفهم مراده وعندئذ سأله الأمير:

– من نبيك؟!.

– نبيي!! نبيي هو... اللّه!!.

– ألا تعرف نبينا محمد [الذي أنزل اللّه – تعالى – عليه القرآن، وعلمنا الدين الإسلامي، وهدانا إلى الصراط المستقيم؟ نظر الشيخ إلى البعيد، ثم نظر إلى أمير الجماعة وقال:

– لا أعرفه، ولم أسمع عنه شيئاً..

أحس الوعاظ الثلاثة أن عليهم مسؤولية كبيرة في تعليم هذا العجوز مبادئ الاسلام وأن عليهم أن يقدموا له فكرة عن النبي محمد [وأن يعلموه الصلاة.. وشرع الثلاثة يتحدثون إليه، واحداً بعد آخر كلٌّ يوضُح جانباً. ولكن بعد حديث وتوضيح وتمثيل للمعاني التي عرضوا لها استمر ساعة كاملة، قال لهم كلاماً فهموا منه أنه لا يريد أن يغير شيئاً مما هو عليه منذ أن عرف الحياة، وليس في نيته أن يصلي.. قال له أحد الوعاظ:

– ولكن ماذا يفعل لك الحق إذا لم تعرف مبادئ دينك ولم

تعرف نبيك، ثم تتوب إِلى اللّه مما كنت فيه، وتأخذ بأداء الصلاة؟ نظر في البعيد وقال بلهجته البدوية التي لم يفهمها الوعاظ إِلا بصعوبة، مستعينين بدلالة الحال:

– أنا مُسلِّمٌ أمري إِليه، ليفعل ما يشاء، لم أعد راغباً في تغيير شيء مما أنا عليه.. أنا مرتاح لما أنا فيه.. لا تطلب مني أي أمر لم أعتد عليه منذ وعيت الحياة ورجاه أمير الجماعة أن يرافقهم إِلى المسجد على بعد أربعة كيلو مترات، وهم مستعدون أن يحضروا له دابة يركبها.. لكنه رفض هذا العرض بإِصرار... وعادوا دون أن يتمكنوا من أقناعة بمرافقتهم إِلى المسجد..

وفي اليوم التالي أرسلوا له واعظاً نشيطاً ذا قدرة بالغة على اجتذاب الناس.. ولكنه حاول حمله على تعلم شيء جديد عن الإِسلام أو على مرافقته إِلى المسجد، ولا سيما أنه أحضر معه حماراً قوياً، فلم يفلح..

ومضى الوعاظ الدعاة يجوبون بادية الرويشد مدة شهرين يعلمون البدو الدين، ويفتون لهم، ويعلمونهم الصلاة، ويحثونهم على المداومة عليها، وقد استجاب لدعوتهم كثير من الناس، بل لقد أَلَحْ عليهم بعض الجماعات أن يعودوا إِليهم، مرة كل شهرين على الأقل.

وفي طريق عودة الوعاظ الدعاة عرض أميرهم عليهم فكرة زيارة الشيخ العجوز مرة أخرى. قال أحدهم معترضاً:

– لقد بلغ الرجل من العمر عتياً، ويصعب أن يقتنع بشيء جديد، لان عروق دماغه قد تيبست، فلا يجري فيها إلا ما كان يجري فيها، وإذن، لا فائدة من زيارته مرة أخرى.

وعلّق آخر:

– لكن الكلمة الطيبة كحبة القمح الناضجة، إذا بذرتها في الأرض أخصبت، فلعلّ كلامنا في المرة السابقة إلى هذا الشيخ العجوز يكون قد فعل فعله في نفسه، فنجده مستعداً لقبول دعوتنا في هذه المرة .

وعلّق ثالث:

– لكن حّبة القمح الناضجة لا تخصب في كل مكان، وإنما تخصب إذا وجدت أرضاً خصبة، ولكنها لا تنبت إذا وقعت على صفوان.

وختم الأمير الحوار بينهم بكلمات حازمة قال:

– إذا نحن عدنا دون أن نمرّ به، ظللنا نأسف لفترة طويلة، لأننا لم نجرب حظنا معه مرة أخرى، أما إذا مررنا فلا نأسف ولن نخسر.. فإذا استجاب كان ذلك ما نبغي.. وإلاّ كنا قد أدينا واجبنا على خير وجه.

استقر الرأي بعد حديث الأمير، على أن يزوروا خيمة الشيخ العجوز، لعلهم يصلون من نفسه إلى ما لم يصلوا إليه قبل شهرين.. لعله يحفظ اسم الرسول – محمد – واسم الكتاب

الذي أنزل عليه، ولعله يأخذ بالصلاة، بما يمكن أن يحفظ من كلمات – الفاتحة – ثم يتدرج في تعلمها حتى يحفظها كلها.

ولكن كان أسف الوعاظ شديداً عندما لم يجدوا إلا الآثار.. لقد اختفت الخيمة والشيخ والشياه!.. وعندما سألوا البدو المجاورين.. أفادوا بأن الشيخ – فنخير – قد مات.

العملاق

في عام١٩٥٥م. لم تكن المدارس الاعدادية منتشرة في القرى الكبيرة.. بَلْةَ الصغيرة.

في قريتنا الطيبة (وهي من قرى جنوبي مدينة الكرك) كانت المدرسة تنتهي بالصف السادس أي كانت مدرسة ابتدائية. مما اضطرني في ١٩٥٦ أن أنتقل إلى قرية مجاورة اسمها – العراق – لأدرس فيها الصف الأول الإعدادي أي الصف السابع.

بسرعة حصل تعارف بيني وبين لفيف من أبناء الصف. أما هواش جحدر.. فلم آلفه.. نفرت نفسي منه منذ أن رأيته وقد صّدقت المعرفة فِراستي: كان حنطي اللون أطول طلاب الصف، لا يحسن لبسه البنطلون والقميص تبدو على وجهه سيما الشر والعباطة.. وقد كشفت الأيام عن ولد مشاكس، لا يترك أحداً إلا تحرش به.. حتى أنا.. الذي جئت للدراسة لا لهدف آخر تحرش بي، بعد أول امتحان أخذناه في العلوم كانت علامتي أعلى علامة... أقبل نحوي ودفع في صدري قبل أن يتكلم ثم قال:

– جئت «لتكوّش» علينا.. لتغلبنا.. لا يجوز أن تحصل على

أعلى علامة؟

قلت وقد استعددت للدفاع عن نفسي:

– وهل منعتك من الدراسة، وأن تحصل على أعلى علامة؟

كوّر قبضة يده ولكمني على خدي.. ضربته كفاً على خده الأيسر والتحمنا.. حاول الطلاب أن يفصلو بيننا، ولكننا انفصلنا بسهولة عندما رأينا مدير المدرسة – الأستاذ مفيد – (ولا أعرف من اسمه إلا هذا المقطع الأول) أشار إلينا: تعالا.. لم يلتفت إليّ.. قال لهواش:

– «وَلَكْ» ياولد ياعفريت.. لا تترك أحداً من شرك!!

أنا أْعرف أن هذا الطالب مؤدب، فلماذا تتعارك معه..؟

ضربه.. كَفًّا.. أمره أن يقف على باب الإدارة. أشار إليّ أن اتبعه.. وقفت على باب الإدارة.. أشار إِليَّ: أَنْ أَدْخُلْ. جلس على مقعده، وقفت أمام الطاولة.. سألني عن السبب.. فأجبته بما كان.. حرّك رأسه، علامة الحيرة، ثم قال: اذهب إلى صفك..

لم أدرِ ما الذي كان بين المدير وبين هواش بعد ذلك، ولكن الذي أدريه أنه لم يعد يتعرض لي أو يتحرش بي.. ولعلّ السبب الأول أنني تحاشيت الاحتكاك به..

لم أره بعد تلك السنة بعد عشر سنوات.. كان شاباً فارع الطول ذا شوارب كثيفة.. يرتدي زيّاً عسكريًّا، وتلمع على كتفه نجمتان، انقبض صدري عندما تصادفنا وجهاً لوجه في مدينة

الكرك سلمت عليه سلام مجاملة. ولكي أتخلص من الوقوف معه عرضت عليه أن نشرب العصير.. اعتذر فودعته ومضيت..

بعد ذلك بقرابة سنة.. التقيت بأحد زملائنا في الأول الاعدادي، وهو من قرية العراق.. قال لي. بعد حديث طويل عن الماضي وتذكر طلاب الصف واحداً واحداً، عندما تذكرنا يوميات هوامش، قال:

– أعرفت؟

– ماذا..؟

– كاد يقتل أباه وأخاه..

– أعوذ باللّه، لماذا؟

– طلب من أبيه أن يسجل باسمه قطعة أرض دون إِخوته، ولمّا لم يقبل أبوه.. احتدم شجار بينهما وقف أخوه محمود إِلى جانب أبيه... أخرج مسدسة.. صوبه نحو أبيه.. في اللحظة التي ضغط فيها الزناد.. كانت يد القدر قد أرسلت أحد الرجال الشجعان، جاءِ من خلفه، وصفق يده إِلى أعلى فطاشت الطلقات في الهواءِ فكان أن سلّم اللّه.

انقطعت أخباره عني عشر سنوات أخرى.. ثم التقيت بمعلم مثلي من قرية العراق.. أخذت أسأله عن معارفي من أهل القرية، وعن زملائنا في المدرسة... وعندما ذكرت له هواش.. صمت هنيهة، ثم تأفف وقال: – ضاع..

حرت في معرفة كنه جوابه، قلت:

– ماذا تقصد؟

قال وقد تجهم وجهه:

تزّوج هواش زوجته الأولى بعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية مباشرة، كانت فتاة قرويّة بسيطة، من النوع الذي يؤمن بطاعة الزوج، مهما كان متجبراً متعجرفاً.. وفي العام الماضي تزوج – مرة ثانية – من فتاة متعلّمة، تؤمن بالحرية المسؤولة، وترى أن لها الحق في أن تناقش وأن تأخذ وتعطي، وألا تستجيب للتعليمات والأوامر اللامنطقية. لهذا دب الخلاف بينه وبينها من اليوم الأول..

بعد بضعة أشهر.. تعقدت العلاقة بينهما حتى أخذ يضربها كلما خالفته في أمر من الأمور.. عندئذٍ.. زاره أبوها.. (وهو رجل عظيم الشأن له من البنين اربعون، وعشيرته عديد الحصى).. ونصحه بأن يغير معاملته معها وأن يتفهم مكانتها: أنها ابنةُ ذَواتٍ وأنها متعلمة لا تقاد من أنفها، وإنما تريد زوجا يفهمها ويتفاهم معها.. لكنه أجابه بكل صلف وجبروت بأنه لن يغير من معامته لها.. وإنما عليها أن تخضع له وتستلم وإلاّ.. فليس لها إلا السوط..

قلت: غريب هذا الشخص... لم يترك صلفه وجبروته حتى مع زوجته!!

قال: وبعد أشهر أخرى.. تعقدت الأمور أكثر فأكثر.. في هذه المرّة لم يزرها أبوها، وإنما اتصل به هاتفيًّاً.. وعرض عليه أن يطلقها وهو يعيد له كل ما دفعه من صداق... لكنه أجابه بصلفه المعهود بأنه لن يتنازل عنها، وسيرغمها على طاعة أوامره.. اضطر أبوها أن يهدّده بأنه، إنّ لم يكفّ عن ضربها أو يطلقها.. فإنه سيدفع إليه جمهرة من أبنائه وأقاربه.. يأخذونها منه.. عنوة.. ولكنه ردّ بأنه سيدفع أي عدوان بما هو أشدّ منه..

علّقت بكلمات قليلة: للأسف ما يزال على عباطته التي عهدناها..

قال: لكنك لا تدري ماذا حدث بعد ذلك؟

بلهفة سألته: ماذا حدث؟

قال: في نوبة من نوبات غضبه، حين لم تستجب لأوامره،.. شدّها على عمود الكهرباء أمام منزله، عارية إلا من الملابس الداخلية، وأخذ يضربها ضرباً مبرّحاً..

سريعاً وصل الخبر إلى أبيها.. دفع بجمهرة من أبنائه ورجال عشيرته.. أحاطوا به.. لم يقف إلى جانبه سوى ولديه الكبيرين من زوجته الأولى، تخلت عنه – لسوئه وصلفه – عشيرته.. حاول الصبيان استعمال السلاح فأرداهما المهاجمون قتيلين.. فوراً.. أمّا هو فقد اكتفى باستعمال قبضة يده، لأنه لم يجرؤ على استعمال المسدس..، انهار سريعاً.. اللكمات المتتابعة التي

انهالت عليه.. جعلته ينهار سريعاً.. أُغشي عليه وعندما أفاق.. أدار عينيه كالأبله فيما حوله ثم سأل المهاجمين:-

- ماذا تطلبون؟

- أن تطلق سعاد.

وافق فوراً ومضى معهم متحاملاً على نفسه وطلقها في المحكمة.

قلت: أنا آسف لما انتهى إليه.. هذه نتيجة الغرور والعناد..

قال محدثي: لم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ!

استفسرت: وماذا بعد؟

قال: في اليوم الثاني اتصل به أبوها هاتفياً، وأمره أن يسقط حقوقه عليها.. فامتثل للأمر، وذهب إلى المحكمة وأسقط حقوقه كاملة..

وفي اليوم التالي.. أمره أن يتناز لها عن ربع ثروته.. فامتثل للأمر، ومضى إلى دائرة الأراضي... وتنازل لها عن ربع أرضه ثم دفع إلى موفدٍ من أبيها ربع ماله الذائب..

صدمتني هذه الأخبار، ولم أكد أصدق، فتساءلت:

- وأين صلفه وجبروته؟

حدّق فيّ قليلاً ثم قال.. بل طلب منه أبوها ماهو أكثر من ذلك.. طلب منه أن يحسّن معاملته مع زوجته الأولى وبناته منها.. فامتثل للطلب، وإن كان يراوغ في التنفيذ.. علماً أن

زوجته الأولى لا تَمُتُّ إِلى هذا الرجل العظيم بأي صلة.

علقت: ما بقي شيء يطالبه به..

قال، وهو يرفع حاجبيه:

– الأيام حبالى.. ولا ندري ماذا تلد..

لم تلفت انتباهي الجملة الأخيرة، ولكنني ركزت اهتمامي فيما انتهت إِليه شخصيّة هواش جحدر، تساءلت:

– لماذا انقلب من عملاق إِلى شبح ذليل مذعن؟

قال: سألت طبيب غدد وأعصاب.. فأكد أن الصدمة العصبية التي أعقبت اللكمات ورؤيته لولديه صريعين.. أثرت في إِفرازات الغدد عنه.. فحولته من شخص شرس متغطرس إِلى شبح خانع ذليل..

لم أملك نفسي، بعد هذه الأخبار المذهلة، إِلا أن أضرع إِلى العلي القدير أن يَمُنَّ علينا بالصحة والحكمة، وأن يحيينا ما دامت الحياة خيراً لنا، وأن يميتنا عندما يمسي الموت راحة لنا من كلِّ بلاء.

الفهرس

الموضوع

منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١ – من الشعر الإسلامي الحديث – لشعراء الرابطة .

٢ – نظرات في الأدب – أبو الحسن الندوي .

٣ – ديوان « رياحين الجنة » عمر بهاء الدين الأميري .

٤ – دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحيث . د . عبد الباسط بدر .

٥ – النص الأدبي للأطفال د . سعد أبو الرضا .

٦ – ديوان « البوسنة والهرسك – مختارات من شعراء الرابطة .

٧ – لن أموت سدى « رواية » الكاتبة جهاد الرجبي (الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية .

٨ – ديوان « يا إلهي » محمد التهامي .

٩ – يوم الكرة الأرضية « مموعة قصصية » د . عودة الله القيسي .

١٠ – ديوان مدائن الفجر د . صابر عبد الدايم .

١١ – العائدة « رواية – سلام أحمد إدريو » الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية .

١٢ – محكمة الأبرياء « مسرحية شعرية »

د . غازي مختار طليمات .

١٣ – الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني د .

حلمي القاعود.

١٤ – ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥ – ديوان «في ظلال الرضا» أحمد محمود مبارك.

١٦ – في النقد التطبيقي د. عماد الدين خليل.

١٧ – الشيخ أبو الحسن الندوي دراسات وبحوث – مجموعة من الكتاب.

١٨ – د. محمد مصطفى هدارة – دراسات وبحوث – مجموعة من الكتاب.

١٩ – معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢٠ – القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر – حليمة بنت سويد الحمد.

٢١ – قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٢ – قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية» محمد رشدي عبيد.

سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام، شعر، محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي، أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل، يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور، د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي، شعر، أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب، فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين «مجموعة قصصية للأطفال من الأدب التركي» تأليف علي نار، ترجمة شمس الدين درمش.

تحت الطبع

١– ديوان «أقباس» ، طاهر محمد العتباني .

٢– الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة، د. كما لسعد خليفة.

٣– بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.

٤– بحوث ندوة تقريب المفاهيم عن الأدب الإسلامي.

٥– الأعمال الفائزة في مسابقة ترجمة الإبداع من آداب الشعوب الإسلامية (ستة كتب).

٦– الأعمال الفائزة في مسابقة الأدبيات الإسلاميات (١٠ كتب).

٧– الأعمال الفائزة في مسابقة أدب الأطفال التي أجرتها الرابطة، وهي:

– ٣ مجموعات شعرية.

– ٣ مجموعات قصصية.

– ٣ مسرحيات.

المؤلف في سطور

الاسم: د. عودة الله منيع القيسي.

تاريخ الميلاد ومحله ١٩٣٨ م – الكرك – الأردن.

– الشهادات الدراسية: دكتوراة في اللغة العربية / تخصص آداب ١٩٨٨ م.

– عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

– عضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين.

– عضو جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية.

– عضو المعهد العالمي للفكر الإسلامي

– رئيس المكتب الإقليمي للرابطة في الأردن سابقاً.

– عمل في التربية والتعليم والتوجيه.

– أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بجامعة عمان الأهلية

المؤلفات:

– تجارب في النقد الأدبي التطبيقي.

– أنماط من الحضارة الغربية في روايات نجيب محفوظ.

– من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم..

– يوم الكرة الأرضية (مجموعة قصصية) وله مجموعة كبيرة من البحوث والمقالات في الصحف.



يوم الكرة الأرضية